مصر
التي في..
التليفزيون



محمد النجار

كيان كورب
دار ليلى

محمد النجار

مصر التي في.. التلفزيون

قصص قصيرة ، مقالات

الكتاب:

مصر التي في.. التليفزيون

المؤلف:

محمد النجار

رقم الإيداع:

21762 /2011

الترقيم الدولي:

978-977-6836-83-9

* * *

الغلاف:

محمد محمود

الإخراج الفني:

حسام سليمان

التدقيق اللغوي:

محمد عبد الغفار

* * *

التوزيع:

عبد الله شلبي

الإشراف العام:

محمد سامي

* * *

كيان كورب للنشر والتوزيع والطباعة

دار ليلى

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11

هاتف: 33370042 (02) (002) - 3885295 (012) (002)

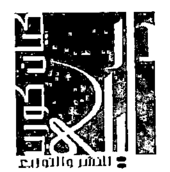
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

كيان كورب
للنشر والتوزيع والطباعة

دار ليلى

محمد النجار

مصر التي في.. التليفزيون



إهداء..

إلي أمي التي أشكر الله انه جعلها هي، و ليس أحدًا آخر

إلي أمي التي جعلتني أؤمن بان الله لن يخذلني، لأن لي أمًا مثلها تدعو لي

إلي أبي الذي شعرت رويدًا رويدًا أنه لم يكن بتلك القسوة التي كانت تبدو عليه أحيانًا

إلي أخي الذي أقنعني يومًا، أن القراءة أفضل من الفرجة علي الصور

إلي أختي التي احتملت بصدر رحب عصبية ورثتها عن أبي

إلي بيرم التونسي صاحب أول قصيدة اقرأها بغير غرض المذاكرة

إلي أحمد خالد توفيق الذي رباني دون أن يدري

إلي أدهم صبري و رفعت إسماعيل و سين 18

وعلاء عبد العظيم و نور الدين محمود

إلي نوسة ولوزة وتختخ والعميل رقم صفر، الذي لا يعرفه أحد

إلي احلي مكان علي الأرض

إلي الإسكندرية

مقدمة يمكن تجاهلها

ما بين يديك الآن - عزيزي القارئ - مجموعة من القصص القصيرة والنصوص والمقالات والخواطر التي كتبها المؤلف على مدار عامين من عمره الذي لا يتعدى العقود الثلاثة.. لم يتم تجميع تلك الكتابات مع بعضها البعض بغرض مراعاة التنوع مثلا أو درء الملل أو شيء من هذا القبيل.. لكن ببساطة هي كل ما زرعه العقل وحصدته الأقلام ولوحة المفاتيح.. فكاتب تلك السطور لم يفكر يومًا أن كتابًا سوف يُنشر له في يوم من الأيام.. لذلك أرجو منك - عزيزي القارئ - أن تتعامل مع السطور المقبلة بصبر وأن تلتمس العذر إذا اكتشفت خطأ إملائيا أو جملة تركيبها خطأ.. فكاتبها أبعد ما يكون عن الاحتراف.. كما أنصحك إذا قررت قراءتها ألا تترك بجانبك أي شيء قابل للكسر حتى لا ترميه في وجه أحد ما وأنت تلعن سلسفيل دور النشر التي تركت أمثال هؤلاء يعيثون في

الكتب فسادًا بأقلامهم المتواضعة.

كثرة الأحداث - عامة كانت أو خاصة في السنوات الأخيرة - جعلت من أغلب ما يحتويه هذا الكتاب من قصص أو مقالات يتجه بشكل أو بآخر إلى فكرة الوطن وعشقه ورفعته.. ليس نوعا من الوطنية أو عشق الهوية لا سمح الله.. لكنك إذا جئت بـ"لا مؤاخذة فرخة" تمسك قلمًا خلال الفترة الماضية لوجدتها لا تكتب إلا عن وضع البلاد وماضيها ومستقبلها. ولا أدري إن كانت حداثة السن ميزة أم عيبًا.. لكنها واقع في المؤلف رغمًا عنه.. فعمر المؤلف - كما ذكرت آنفا - لا يتعدى الثلاثين عامًا.. قضى أربعة منها في غياهب الغربة الجسدية وليست العقلية. ببساطة ومن دون "لت وعجن" أهدي إليك - عزيزي القارئ - بعض السطور التي ظن كاتبها أنها ليست سيئة لتُهمَل وليست رائعة لتدرَّس.. لكنها تظل في الأول والآخر كلمات أتمنى أن تنال إعجابك.

محمد محمود النجار

قصص قصيرة



وتبتسم

هذا حالك إذا ما جنَّ الليل.. ترقد.. تعتدل.. ترقد مرة أخرى.. تتقلب يمينًا ويسارًا.. تخشى أن تنام فلا تصحو وأنت مثقل بخطايا الدنيا.. وتخشى ألا تنام فلا تقوى على أن تصحو لتجابه خطايا الدنيا.. تخشى أن تفارق عزيزا.. وتخشى أن يظل الظلم سائدا.. تتذكر قول الغزالي في هذه اللحظة بالذات.. اطمئن.. فمقاليد الأمور لم ولن تخرج من يده.. الآن فقط.. تبتسم.

الصباح.. رائحة القهوة المنبعثة من مكان ما.. أشعة الشمس الحانية التي تنذر بويل مقبل.. وجوه فرض عليها التفاؤل فرضا.. أمٌّ تقبل ابنها.. وأخرى تلعنه.. قط منتفش وبره كأسنان المشط ينظر إليك في تلذذ.. يقسم لو كان أكبر قليلا لالتهمك حيًّا..

تشق الهواء بصدرك ساعيا للانتشاء.. ترفع عينيك إلى تلك الشرفة.. تجدها هناك.. عجوز يرفض الموت أن يقبض حنانها.. تجلس في سكينة.. تتلاقى نظراتكما.. ابتسامة لا يدري أي منكما سببها..

لكنكما على يقين أن هناك من يعرف كم يحتاج كلاكما لتلك الابتسامة.. تمضي إلى طريقك كما كنت.. لكنك الآن.. تبتسم.

حافلة ممتلئة كأرض المحشر.. حتى لتشعر أنها تتصبب عرقا.. أجساد تتلاحم وجسم الحافلة – وانعجني بأجزائي – هكذا وصفها نزار..

تختار لنفسك هذا الركن القصي.. تغلق عينيك.. تبني لعالمك حدودا غير مرئية.. تفتح عينيك على تلك الضحكة الخافتة.. فتاة في ربيع الطفولة.. تبتسم في خجل.. تواري عنك عينيها المنهكتين.. تدفنهما في كتف أمها ثم تعود وتنظر إليك من جديد.. إنها البراءة في أنقى صورها..

لا تعجب أن رأيت في وجهها نضرة النعيم.. فهي حتى يومنا هذا من عمار الجنة.. لم تلوثها صعاب الحياة.. ولم تخضُ أوحال المال والسلطة والشهوة..

تتذكر في عينيها ليالي قضيتها على أغصان شجرة التوت.. كفًا كحب اللؤلؤ يربت على وجنتيك.. شارب خط حدودا خفية بينك وبين ابنة الجيران.. حدودا ظلت وليس لك أن تمحوها ولو اقتلعت شاربك اقتلاعا..

تفيق من خواطرك على نقرات خطوات ذلك العجوز.. لا يكاد

يقوى على الوقوف في منتصف الحافلة.. تريد لو تفسح له مكانك.. تخشى أن تخرق شفقتك ثوب كرامته.. تتحرك في بطء تاركا مجلسك.. تتأرجح نظراتك ما بين الارتباك وادعاء اللامبالاة.. يبتسم لك في امتنان فيطمئن قلبك.. تخطو نحو مخرج الحافلة مدركا كم سعادتك..

تنقل عينيك ما بين الفتاة والعجوز.. وتبتسم.

تجلس مقابلة لك ولا تعرف عنها شيئا.. ابتسامة عريضة تملأ ما بين أذنيها.. تحرك قدميها واحدة فوق الأخرى في عصبية.. ترفع يدها لتخفي خصلات تسللت خلسة من تحت حجابها.. تنظر إليك بين حين وآخر.. فتبادلها..

هم ينظرون إليك باستغراب.. ما الذي يعجبك فيها؟ لا جديد يميزها.. هو جمال الروح يا حمقى.. أصدق ما تقول؟ أيكفيك جمال الروح عن جمال الطلعة؟ لا يهم.. أنت تراها جميلة وهذا يكفي.. تراها عصفورا يرفع عقيرته بالغناء.. حورية ترقص على ضفاف الكوثر.. هكذا تراها..

تتأملها.. تقرأ أفكارها في أفكارك.. أعجبها قميصي.. ومضات الشعر الأبيض على جانبي رأسي.. هامت بي حبًا..

هكذا تراها..

لكنك لم ترَ هذا الرجل يقترب.. لم تشهد لحظة تلاقي أعينهما.. لم تشعر بهما حين غادرا.. لم تكترث.. يكفيك أن تأملتها بضع ثوانٍ.. يكفيك أن خطفت من زمانها برهة.. هذا ما تعتبره حبًّا..

تريح ظهرك إلى مقعدك.. ترفع يديك لتستقرا خلف رأسك.. تضع ساقًا فوق الأخرى..

وتبتسم..

الغروب.. وقت وصفه عادل إمام ببراعة.. عندما تستقر الشمس فوق الحافلة.. مشهد تحفظه كظهر يدك.. لكنك أبدًا لم تمل منه كعادل إمام ذاته..

الغروب.. شعور غريب بالسكينة.. رغبة مبهمة في الاستلقاء والتفكر.. ترفع رأسك.. تحاول أن تستنشق المشهد بأكمله وتحبسه لتستحضره متى شئت.. تتأمل.. أنت وهذا المشهد نبت الصانع نفسه.. تراه فيسعدك ويراك فتسعده.. وإذا سعدت فالكون أسعد.. في هذه اللحظة.. أنت الكون والكون أنت.. كيان واحد ليس لكما أن تنفصلا..

لون غريب يكسو السحب.. حركتها بطيئة كأحلامك.. يقولون إن الرياح تحركها.. لا أظن.. إن هي إلا أحزان البشر.. وإلا لم تكن لتكتسي بهذا اللون..

ترفع يديك عاليا.. تتمنى لو تلتقط تلـك الـسحابة.. تتلفـت يمنـة ويسرة لتتأكد أن أحدا لا يراك.. تبدأ في تتبعهـا بإصـبعك.. تتوقـف عنـد تلك البقعة المتخمة.. ثمة شخص ما تحت هـذه البقعـة بالـذات.. شـخص يتنفس ويفكر ويحلم.. يضحك ويغضب ويثور.. تحركه شهواته ويـوخزه ضميره.. يخطئ ويتوب ثم يعـود ليخطـئ.. تنظـر مليـا إلى تلـك الـسحابة علها تعكس ما ترى.. تسألها: هل هو هانئ أم تعيس؟ مسكين أم أحملق؟ هل يركل الأحجار الصغيرة خلال مشيه؟ هل يبعثر حبات الأرز في صحن طعامه؟ تراها تبتـسم في شـفقة.. تكـاد تـسمع صـوتها الـرخيم قائلـة: يـا للعجب.. لكم تتشابهان..

ترخي لها حبال نظراتك لتدعها تمضي في سلام.. تفـتح ذراعيـك على مصراعيهما..

تغمض عينيك.. وتبتسم.

وهكذا كان أحمد

- السلام عليكم.. هل محمد معي؟

- نعم.. أنا هو.

- أهلا محمد.. كيف خالك؟ أتصل بك لأنقل إليك خبرا ليس بسار.. هل تذكر أحمد؟

* * *

أجلس على درجات سلم بنايتنا في الدور الثالث.. هكذا جمعت تلك الدرجات ثلاثتنا كل يوم.. أنا وأخي و(أحمد).. أراقبهما بعينين يملؤهما الانبهار وهما يحركان تلك القطع الخشبية المبهمة.. لوحة تتغير ألوانها بين الأبيض والأسود يمرر عليها كل منهما قطعه بسلاسة مدهشة.. يا لهما من عبقريين.

أحاول أن أفهم.. يقول (أحمد): "لقد فزت بالمركز الثالث في مسابقة النادي في الشطرنج.. أظنه سببا كافيا لأذيقك شر هزيمة".. فيرد

أخي متبسما: "سأهزمك ليقال إنني هزمت من فاز بالمركز الثالث في النادي".

أنظر إليهما في تركيز علّي أرى انطباعاتهما بعد تلك المحادثة.. أحاول تقليدهما.. لا أستطيع أن أفهم.. أنقل بصري متظاهرا بالاهتمام بشيء ما.. يقول (أحمد): "سألعب من دون وزير".. أخي يرد ساخرا: "وأنا سألعب من دون ملك إن أردت".. يضحكان.. فأحاول أن أضحك في نفس وقت ضحكهما.. أضرب بكفي متظاهرا بفهم الدعابة.. صحيح أنهما يكبرانني بعامين أو ثلاثة على أقصى تقدير.. ولكن اسألوني عن تأثير تلك السنين على فتى في التاسعة يجلس مع صبية يكبرونه ولو بعام واحد..

أراهما الآن يقطبان حواجبهما في تركيز.. أقرب وجهي أكثر لرقعة الشطرنج.. أقطب جبيني أكثر وأكثر.. أحاول التركيز بحق هذه المرة.. الآن فقط.. فهمت.

يُفتح باب شقة (أحمد) في تؤدة.. تظهر أمه قائلة: "حان وقت الدخول يا أحمد".. فيذهب إليها ملوحا لنا ويقول:

"إلى اللقاء".

* * *

(أحمد الذي كان يلعب الشطرنج معنا أمام مدخل شقته بالدور الثالث).

* * *

ها أنا ذا ألتقط الكرة فيما أظنه مهارة.. أجري بها.. أحاول أن أمررها إلى مصطفى في تعجل.. يحاول بدوره أن يلتقطها لكنه لا يستطيع.. تتدحرج الكرة بعيدا.. شخص ما يلتقطها.. من هذا؟ لحظة.. أنا أعرف من هو.. إنه (أحمد)..

يقول مصطفى: "أحمد.. كيف حالك؟ لم نرك منذ غادرت المنطقة".

أدعوه لمشاركتنا اللعب.. يقول (أحمد): "منذ متى وأنتم تمارسون كرة السلة؟".. كنا قد بدأنا ممارستها منذ قرابة شهرين.. بعد أن تحول الملعب المجاور لبنايتنا إلى نادٍ به أكثر من لعبة ونشاط.. لم أرغب بممارسة كرة السلة بقدر رغبتي وحبي الشديدين لكرة القدم.. لكن أبي منعني لعبها بعد أن كسرت ذراعي للمرة الثالثة بسببها.. يقول (أحمد): "لقد مارست هذه اللعبة لمدة ثلاثة أعوام في النادي".

الآن يبدأ (أحمد) في اللعب.. يتناقل الكرة بين يديه في سلاسة متناهية.. لا يستطيع أحد مجاراته.. يلعب معنا قليلا ثم يذهب ويودعنا

قائلاً: إلى اللقاء..

* * *

(أحمد الذي اكتشفنا أنه يجيد لعب كرة السلة عندما بـدأنا لعبهـا منذ فترة).

* * *

إنـها السنة الثانيـة لـي في هـذه الكليـة.. حتـى الآن لا أجـد فيهـا متعة ما.. أرى أنها مرحلة يجب أن تمر سريعا.

في هـذا اليـوم.. أخـرج مـن مبنـى دراسـتي.. أمـشي بـين مبـاني الكلية.. أراه قادما من بعيد.. هل حقًا هو؟

يتقدم إليَّ مرتديا بنطالا قماشيا وقميـصا يحمـل خطوطا طوليـة.. الحقيبة (السامسونيت) الـتي تـدل علـى الاجتهـاد أو (الـدح) كمـا يحلـو للبعض أن يسميه.. رابطة العنق التي قلما تجد من يرتديها داخـل أسـوار الجامعة.. يتقدم نحوي وابتسامته تملأ وجهه.. يتـذكرني كمـا أتـذكره.. يمـد يـده مـصافحا ويقـول: "أهـلا محمـد.. لم أكـن أعـرف أنـك في كليـة الهندسة.. آمل أن تكون قد أعجبتك".. أحرك رأسـي مـشيرا إلى لا شـيء: "ليست سيئة إلى هذا الحد".

يسألني (أحمد) وأجيبه.. نتحاور قليلا ثم يمد يده إليَّ مصافحا مرة أخرى ويقول: "أعتقد أني سأتركك الآن لأن محاضرتي على وشك البدء.. إلى اللقاء".

* * *

(أحمد الذي تخرج في كلية الهندسة قسم...).

* * *

– لقد كانت أياما جميلة يا مصطفى.

– هل تذكر أيضًا (أحمد) الذي...؟

– نعم.. كيف حاله الآن؟

– لقد تم تجنيده في الجيش لمدة ثلاث سنوات.

– يا للأسف.. المهم.. ماذا فعلت في موضوع البحث الذي..؟

* * *

– أهلا محمد.. كيف حالك؟ ما الذي أتي بك إلى الشركة؟

– إبراهيم.. سنوات مرت لم أرَك فيها.. أنا أتدرب هنا في شهور الصيف.. ماذا عنك؟

– أنا أعمل هنا..

– وكيف حال (أحمد) أخيك؟

– إنه ما زال في الجيش..

– أبلغه سلامي عندما يعود.

– سأفعل.. سوف يعود ليقضي معنا إجازة العيد إن شاء الله..

* * *

– نعم أذكره.. ما باله؟

– لقد توفاه الله.

– ....

– محمد.. هل ما زلت معي؟

– نعم..

– بينما كان عائدا في إجازة من التجنيد.

– ....

– محمد.. هل ما زلت معي؟

– نعم..

– حادث طريق.. أظن أن أحدا لم ينجُ.

- ....

- محمد.. هل ما زلت معي؟

- نعم..

- إذًا لماذا لا ترد؟

- لأنني.. أبكي..

مصر التي في التليفزيون

- ها أنا ذا طفل مهندم الملابس حسن المظهر يتجه بكل ثقة إلى المدرسة في أول يوم دراسي.. أبتسم في فرحة لا مثيل لها وأجذب ذراع أمي بقوة كي تسرع من مشيتها عكس بقية الأطفال الذين تحملهم أمهاتهم حملا إلى الداخل. لم أُعِر ما أراه اهتماما.. إنهم مجموعة من الحمقى لا يعلمون ما ينتظرهم من نعيم خلف أسوار هذه الجنة.

أرجوك لا تسألني عن نظرة الدهشة المشوبة بالأسى التي ترميني بها أمي كل خمس ثوانٍ.. ومن فضلك لا تجعل منظر البوابة الحديدية الصدئة والأسوار المتآكلة يخدعك.. صدقني.. إنها أمور فقط "تخزي العين".

ها هي أمي تتركني قرب المدخل ليتسلمني عم إبراهيم البواب ويضعني في آخر الطابور.. أغلق عيني.. وأفتح ذراعي على مصراعيهما كي أستنشق هواءها العلي - أي ي ي ي ي.. سوط من قاع جهنم يهوي على يدي فيورمها في الحال وصوت هادر يعوي من أعماق الجحيم: "إيدك

جنبك يا روح أمك.. يلا معتادا مارش ع الفصل"..

فصل!! نعم.. أتذكر مشهد الفصل جيدا.. إنه ذلك الذي يسمونه "الكلاس" في "التليفزيون".. ذلك الطفل ذو الشعر الحريري الذي يستسلم تمامًا لتربيت المعلمة التي تخرج له بدورها آلة "الكمان" من مكان ما وتبدأ في تعليمه "دو ري مي".. حتمًا إن من ضربني ليس بمدرس.. هو لا يرتدي "الكرافات" ولا يضع العوينات "الفريم ليس" ولا يقبل الأطفال في مودة كما يفعل "عمو التيتشر" في التليفزيون.. سأتجه إلى الفصل الآن لأجد معلمتي الأنيقة التي ستدربني على "دو ري مي".

– في الفصل لم يكن الحال بأفضل مما كان.. حالة من الهرج والمرج.. كل الأطفال خائفون من شيء ما.. هذه السيدة ذات الوجه الملائكي التي تلبس أبيض في أبيض وتبدو عليها أمارات الحنان والطيبة.. ممَّ تخافون يا حمقى؟ إنها معلمة الـ"دو ري مي".

أتجه إليها في اطمئنان فتتهلل أساريرها وتحتويني بين ذراعيها في حنان – لماذا تشمر عن ذراعي اليمنى؟ – لا يهم.. المهم أنني سأصبح أخيرا ذلك التلميذ المستمتع بالحياة الرائعة.. أي ي ي ي ي.. نار تستعر أعلى ذراعي اليمنى.. الآن فقط أفهم سر هروب الآخرين.. أصرخ في ألم وأنظر إليها نظرة استجداء لأصطدم بشرر يخرج من عينيها ولسان حالها

يزأر في استمتاع: "نياهاهاه".. وهي تضغط بكل قوة كي تغرس "الحقنة" في ذراعي.. إلى أن تنتهي من وصلة التعذيب لأنظر إليها بعينين تغرقانهما الدموع غير عالم أنها قد علمتني "علامة" ستظل كختم في ذراعي ما حييت.. وستظل دائمًا مبعث حيرة وتساؤل عن سبب بقاء أثر هذه "الحقنة بالذات دونا عن مثيلاتها التي دبت في أماكن لا يسعني المقام لذكرها هنا.. ولم تترك أثرا.

- المهم أنه وبعد عدة "حصص" ومدرسين ليسوا أفضل حالا من أسلافهم.. تأتي نهاية اليوم الدراسي الأول. أخرج إلى "حوش" المدرسة حيث ينتظر الأطفال آباءهم.. ثياب مهترئة.. بشرة متسخة.. سلوك عدواني.. معارك بالطوب.. لعبة لا تمت لكرة القدم بصلة تُستخدم فيها جوارب أنثوية.. حتمًا هؤلاء الأطفال مجانين.. لا يمكنكم التصرف هكذا هنا.. هذه مدرسة يا حمقى.. ألا تشاهدون التليفزيون؟!

- أخرج من المدرسة وأنا أضرب أخماسا في أسداس.. شاعرا بالشفقة على هؤلاء المخابيل الظانين سوءا أنهم يعيشون حياة طبيعية. وأنا على يقين تام أنني سوف أصبح يومًا ذلك الطفل المهندم رقيق البشرة الذي يلعب مع أصدقائه برشاش ري العشب في مساحة شاسعة من الحدائق الغناء ذات الأشجار العالية والقطوف الدانية. ذلك الطفل الذي

يأكـل "الـسوسيس" مـع أصـابع "البـاتون سـاليه" و"الـساليزون" ويمـارس الفروسية كل أسبوع في النادي.

هذه هي مصر التي أعرفها عن ظهر قلب.. هذه هـي مـصر الـتي في التليفزيون.

– بعد يوم دراسي مبشر.. أعـود إلى بيتنـا وأدلـف إلى غرفـة أمـي لأجدها تتابع أخبار الثالثة على محطتي المفضلة (الأولى). ها هـي المذيعـة المتألقة التي تعدت الستين بقليـل تـصرح بـأن "عمـو بـوش" تـرك رئاسـة "أمريكا" وأصبح "عمو كلينتون" الرئيس الحالي.. فيتبادر إلى ذهني سؤال سرعان ما يجـري علـى لـساني: "هـو احنـا ممكـن نغـير الـرئيس بتاعنـا زيهم؟"..

فتجحظ عينا أمـي في هلـع وتـسارع بتغـيير المحطـة وهـي تتمـتم بكلمات لم أفهما مثل "مصايب" و"كلامنا خفيف عليهم" و"ورا الشمس".. وأشياء من هذا القبيل.. لم أُعِر كلماتها اهتماما وشرعت أنـصت لــ"ناديـة مصطفى" وهي تؤكد بكل ثقة على القناة الأخرى أنه: "كلـه صـراحة أدب وسماحة وبيحل المشكلة بالراحة".. "وعشان كده إحنا اخترناه"..

فأبتسم في ثقة.. وأقوم من جلستي لأخلـد إلى النـوم شـاعرا بالرضـا التـام والـشفقة علـى أولئـك الـذين أضـناهم البحـث عمـن "يحـل المـشكلة

بالراحـة" فلـم يجـدوا.. حتـى إنهـم يغـيرون رئيـسا كـل عـدة سـنوات.. ووجدتني أتمتم في امتنان:

شكرا يا نادية يا مصطفى.. شكرا يا تليفزيون.

خلف الخط الأزرق

كان ما يراه خلف الخط الأزرق هو نهاية أحلامه.. كان لا يعرف معنى للأحلام إلا واحدا.. كان يتساءل كيف للأحلام ألا تكون حلمه.. كيف لها تخرج عن تلك الدائرة.. كانوا يتحدثون عن حياة رغدة وأسرة وأطفال.. كان يبتسم.. يتظاهر بالتفاعل.. لكنه أبدًا لم يرَ ما يرون.. مهمة محددة وُجد لها ووُجدت له.. اختارته واختارها.. قصة عشق وولـه بين واقع وخيال.. سقف شيد في أعالي عقله ويأبى شيء أن يعتليه..

لا أحلام بلا كرامة.. هكذا قال له أبوه.. واستعادة كرامته كانت هي حلمه.. لم يرَ شيئا بعدها ولم يحاول..

"آثار الدم لا يمحوها إلا الدم".. هكذا قالت "أعلم" إنسان في العالم.. أمه.. كانت تعتبر كل من مات أخاه.. ابن عبده العامل لدى والده وابن سنية زوجة فران القرية.. كتب عليكم القتال يا ولدي.. حقيقة حاولوا غمرها في بحر السلام.. لا سلام بين الأعداء يا بني.. هكذا قالت.. لقاءات تُعقد ومعاهدات تلون.. أفواه تتحرك بما يشبه الود وقلوب تشتعل

بالكراهية.. أيامٍ تعرق دما تلامس بعضها بعضا.. هي سنون تمضي يا بني.. أيام تكره أن تمحو أياما سبقتها.. تتمنى لو تسمرت ساعة لتظل شموسها ساطعة.. لم تمل يومًا من الانتظار.. لم يغزل الليل خيوطه على بقايا آمالها.. تمنَّ على الله يا بني.. فإن نصره قريب.

لم يكن يدري أيحبها حقًّا أم لا.. هي وجه اعتاد على وجوده.. منذ كانا كرتي لحم يلعبان خلف برج الحمام.. مؤمن هو بأن المودة تولد وتستمر مع كثرة اللقاء وإن لم تكن حبا.. هي موجودة.. أحد ما تحكي له أسرارك ويلقي إليك ما تنوء به نفسه..

كانت تحتاجه كـ"ضل راجل".. وكان يحتاجها ليثبت لعاطفته أنها ما زالت تعمل.. بشريته دفنت تحت هدف سيطر واستولى على كيانه برمته..

كانت تحبه.. حقيقة عرفها وآمن بها كالموت ذاته.. لكنه أبدًا لم يكن معها.. كانت دائمًا تضع يدها على خصرها وتميل برأسها يمينا وتقول:

"البت بهانة بتاعة الفجل؟ أكيد البنت بهانة بتاعة الفجل".

كان يبتسم.. نزعة شريرة بداخله كانت تأبى أن تريحها.. "ليست امرأة يا حمقاء".. هكذا قال لها ذات مرة.. شرع يحكي لها عن

ملح الأرض.. عن تجاعيد الزمن تحت عيون العجائز.. عن دفء شعاع الضوء خلف الستائر في ليل قارس.. عن همهمات المارين على أكشاك الشطائر ليلا.. عن قرع طبول الرزق على رءوس والد العروس.. وكانت تبتسم.. يعرف أنها لا تفهم حرفا.. لكنها على الأقل تدرك ألا دخل لبهانة في الموضوع.

كان يخشى البحر.. هكذا كانوا يسمون النيل في قريته الصغيرة.. قليلون هم من يعرفون هذه الحقيقة.. أسبابه للهروب من اللعب بجانب البحر كانت لا تقنع أحدا.. كان يراه كأسوأ كوابيسه.. شيء مبهم لا يعرف ما فيه.. كان متيقنا أنه يحوي أسرار الكون.. ذلك السطح المائع الذي يتغير لونه بتغير نفوس البشر.. فاتح اللون هائج في ضياء الصباح.. وغامض داكن عندما تخلد كل نفس لثكناتها..

زاده خوفه عبئا على عبء.. فتحدياته زادت واحدا.. عدو أضيف قسرا إلى قائمة أعدائه.. حاجز ليس له إلا أن يعبره ليفوز بمحبوبته.. شعوران اختلجا في صدره كلما نظر إلى ذلك الخط الأزرق.. نظرتان بدت آثارهما على أهداب عينيه.. أرض قدر له أن يمنحها ما خف وزنه وما ثقل.. حب يرقى إلى التضحية بالغالي والعزيز.. وكراهية عملاق يفرد جناحيه حولا بينه وبين آخر أمانيه.

أحاديث دارت بينه وبين ذلك البحر الأزرق.. كثيرًا ما سأله في استرضاء: أتراك تخذلني لما أحمله لك من كراهية.. أم ستجاورني موجاتك متلاحمة تصد عني كيد الكائدين؟ أستشفع لي غايتي.. أم أنك حمال غل لا تنسى؟

كان يقينٌ في نفسه يجيبه.. حتى إن كان.. حتى إن كرهه البحر.. فهو عطوف لن يأخذ غيره بذنبه.. هؤلاء الذين يداعبون مياهه بغير خوف ولا كره ولا ضغينة.. لن يقسو موجه الشفاف على من عشقوا لمسته وبذلوا الروح في سبيل حريته.. هكذا قال وهكذا قام من مجلسه.. أمسك سلاحه وتوجه بخفة إلى أصدقائه على الشاطئ.. تهادت الكرة بجانبه في خفة.. إلى المياه رويدًا رويدا.. نظر الجميع بترقب.. نظرته سبقت وهكذا فعلت قدماه.. صوت ميَّزته أذنه ولكن أبدًا لم تسمعه من تلك المسافة القريبة.

هو لم يعد خائفا.. هذا عدو مُحي من قائمة أعدائه.. هذا حاجز هدمت جوانبه وتفرقت أجزاؤه.. الآن فقط شعر بدنو اللحظة.. نظر إلى السماء.. فوقه مباشرة.. جملة مرسومة بوضوح على اللوحة الزرقاء النقية.. كيف لا ترونها يا حمقى؟ هي لا تبهت ولا تختفي.. هي تقول: ألا إن نصر الله قريب.

فجأة.. تهللت أساريره واستعادت عيناه بريقهما.. شعر أنه يـرى الكون لأول مرة.. يملكه.. يحمل أوزار من سبقوه.. وأحـلام مـن خلفـوه.. وبندقية.. يشهد أشلاء بلا أصدقاء.. وحيوات ظنوا أنـها تنتهي.

لم تفارق شفتيه الابتسامة.. حانـت منـه التفاتـة سـريعة.. نظـرة حانية إلى تلك الأرض وتلك السماء.. التفت ثانية.. وأطلق لزناده وسـاقيه العنان.

جدود

ها أنا أجلس وحيدة في هذا الركن القصي.. أنظر لهذا.. وأبتسم لهذا – لا أعتقد أن عضلات وجهي أصبحت تحتمل هذه التعبيرات كلها – أرفع عيني لأجد هذا يرقص وهذا يغني.. هذا يبارك وهذا يضحك بصوت عال.. وهذا يشاكس وهذا وهذا وهذا.. أعرفهم جميعا.. أعترف أنني أجد صعوبة في تذكر كل هذه الأسماء.. لكني على الأقل أعرف يقينا أنهم جميعا عائلتي.

ماذا؟ ألم أخبركم بهذه المعلومة؟ أرجوكم اعذروني فلم تعد ذاكرتي كما كانت فيما مضى.. أعتقد أنني سأخترع لكم جوابا ما إذا سألتموني عمّا تناولت على الغداء.. المهم.. لكم أن تعرفوا أننا في واحدة من قاعات الحفلات تلك.. إن الزحام شديد لدرجة أنني ظننت لوهلة أن الحوائط سوف تتقعر مصدرة تلك القرقعة المميزة.

لكم أن تعرفوا أيضًا أن العريس هو حفيدي.. هو ابن ابني البكر.. أعني أن ابني هو البكر وليس ابن ابني هو البكر لابني.. أفهمتم ماذا

أعني؟ لا يهم.

أعرف أن "أعز الوِلد ولد الولد".. وأنني فعلا أحاول أن أطبق هذا المعنى حرفيا.. لكن عندما يكون عدد أحفادك أكثر من عدد أصابع يديك وقدميك مجتمعات.. ستعرف حينها لماذا أعتبر نفسي منبعا للحنان ورمزا للتضحية.. أرجوكم لا تعتبروا هذا غرورا.. لكن اعتبروه نوعا من معرفة قدر النفس.. أنا أعرف أنني هكذا.. وأنتم تعرفون أنني هكذا.. وأنا أعرف أنكم تعرفون أنني هكذا.. فلا مكان للتواضع هاهنا.

اليوم.. أشعر بغصة ما في حلقي.. بل حقيقة أشعر بها منذ فترة.. منذ بدأت تلك الحفلات تتزايد.. منذ بدأ أحفادي يتوافدون واحدا تلو الآخر إلى الحياة الزوجية.. سأحاول أن أصف لكم شعوري بالتحديد.. إنه ببساطة ذلك الشعور بالتجاهل.. بعدم التقدير.. الشعور بالهوان على من لم يهنوا عليَّ.. أعتقد أن كلمة "جحود" تصف تمامًا ما يخالجني.. أراكم تتساءلون: كيف هذا؟ وأجيبكم بجملة بدأت بها حكايتي: "ها أنا أجلس وحيدة في هذا الركن القصي".

وحيدة بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ.. وحيدة داخليًّا وخارجيًا إن جاز التعبير.. أحاول ألا أجعل الابتسامة تفارق شفتيَّ.. كلما مرت بضع دقائق نظر إليَّ أحدهم وابتسم.. فأبتسم.. على هذا المنوال طوال

ثلاث ساعات.. حالة من التجاهل التام لشخصي.. تجاهل تام.. لا أعرف كيف ولا لماذا.. كيف يتجاهلونني أنا التي جعلني الله سببا لوجودهم؟ فكل هؤلاء أبنائي وأحفادي.. وأبناء أحفادي أيضًا إن شئت الدقة.

هذا ابني (...) يلاطف هذا.. وهذا ابني (...) والد العريس يتبادل التهاني والابتسامات مع هذا وذاك.. وهذه ابنتي.. وهذا حفيدي.. وتلك زوجة ابني.. وهذا وهذا وهذا.. كيف يتجاهلونني وأنا من أفنيت عمري في سبيل سعادتهم.. أنا التي بكت فرحا لفرحهم وكادت تموت كمدا لحزنهم؟

الآن فقط.. أرى عمري يمر أمامي كشريط سينمائي.. ها أنا ذا بملابس الزفاف.. ابني يخطو أولى خطواته في الحياة.. أمسك بكفيه في حنان: "تاتا.. خطي العتبة"..

زوجي يتوفاه الله.. أحتضن أبنائي وأبكي.. أنظر إلى السماء في تذلل.. أتضرع إلى الله وأسأله القدرة على تحمل ذلك الحمل الثقيل.

الموسيقى تملأ المكان.. ها هو أول أبنائي يتزوج.. وأنا أبكي فرحا تارة.. وحزنا تارة أخرى.. لعدم وجود والده بجواره.

ويأتي إلى دنيانا أول أحفادي.. يخفق قلبي مع أول نفس له في هذه الدنيا كما لم يخفق من قبل.. أحمله بين ذراعي وأقرأ على رأسه آيات

الرحمن لعله يطرح فيه بركاته.. أراه قادما نحوي وأنا أجلس في صالة منزلي فأفتح ذراعي لأضمه..

"عايز حلاوة يا تيته"..

يقول هو.. ها هو يخرج لتأدية امتحاناته.. يلتفت إليَّ في مودة ويقول:

"ادعيلي يا تيته"..

واليوم أجلس وحيدة ولا يعيرني هو ولا غيره أي اهتمام.. أنظر إليه خلسة.. فأراه يرقص ممسكا بيد زوجته المستقبلية ومحاطا بأصدقائه وأقاربه الذين هم عائلتي.. أحاول أن أرفع رأسي.. أمده إلى الأمام محدقة عساهم يشعرون بوجودي.. يرونني واحدا تلو الآخر ثم لا يلبثون أن يحيدوا بنظرهم عني..

"تاتا خطي العتبة".. "عايز حلاوة يا تيته".. "ادعيلي يا تيته"..

هل اقتصر دوري على الحلاوة والدعاء؟ هل هذه هي عاقبتي بعد ما فعلت من أجلهم جميعا؟

هل هذا هو رد الجميل في نظرهم؟ هل هذا ما أفنيت عمري وشبابي وأجمل أيامي من أجله؟

لا أعتقد أن شفتيَّ صارتا ترسمان الابتسامة ذاتها.. ثمة دمعة شاردة تنحدر على وجنتي.. دمعة تحمل هم الدنيا وما فيها.. دمعة لا أريد لأحد أن يلاحظها.. ولكن.. حتى لو لاحظوها.. سيعتبرونها دمعة فرح.. فكم من دموع الفرح ذرفتها من أجلكم أيها الجاحدون.. لا.. لن أبتسم بعد الآن.. أشعر بمسحة الغضب التي ظهرت على ملامحي.. سأخرج ولن تروني ثانية حتى تعرفوا قيمة من أحسن إليكم.. سوف أنت... ما هذا؟ هل هو حقاً ما أراه.. أم أنني أهذي من شدة حزني؟

إني أرى حفيدي قادما نحوي وتعلو شفتيه ابتسامة عريضة.. إنه يخترق الحاضرين.. يعبر هذا.. ويزيح هذا حتى يصل إليَّ.. ويلتي.. ليتني ما ظننت به السوء.. يا لي من ظالمة.. ها هو يقترب من منضدتي في لهفة..

أبسبب بعض الهواجس الخاطئة كدت أفسد فرحة حفيدي؟ يا لي من مخبولة..

ها هو يقترب ويحني رأسه ناحيتي.. أسارع بمسح دموعي في لهفة.. أشعر بابتسامة رضا تشرق على وجهي.. أعتقد أنه سيطبع قبلة على جبيني الآن.. إنه يقترب من وجهي ويقول والابتسامة لا تفارق شفتيه:

"عايزين العكاز يا تيته علشان هنرقص عشرة بلدي"..

وتغترب.. الطائرة

هذا حالك إذا آن الوقت.. مشهد طالما عبأت به ذاكرتك.. على مدخل الطائرة أنت.. كائن أسطوري يزمجر لك في عصبية.. أبواب تفتح لأعلى.. وملائكة تبتسم لك في اصطناع.. هلم إلى عالمنا حيث لا أرض ولا سماء.. ولا وطن..

في مسرحك الصغير.. طالما لعبت هذا الدور.. على أبواب عالم السماء أنت.. تارة تدنو أحلامك وتارة تغدو بعيدة كقلب حبيب.. تملأ رئتيك بنسمات بلادك.. تستشعر الابتذال فيما فعلت.. لا يهم.. هكذا يفعلون.. وهكذا تفعل.. على مقعدك تستقر.. تتأرجح رغباتك بين تمني الجلوس وحيدا وانتظار جميلة ما لتؤنس رحلتك.. تسبح في أروقة حياة اختلقها خيالك.. جلست هي.. تكلمت هي.. ابتسمت هي فرحلت هي.. يدوي في أذنك ما يلقي بك إلى أرض الواقع..

"نرجو ربط الأحزمة"..

تستفيق.. تنفض رأسك يمينًا ويسارًا كقط لامسه الماء.. تُحكم ربط حزامك في تؤدة.. تتأمل في وجوه من حولك.. ترسم أقدارا في مخيلتك.. تصطنع أسماء تراها جلية في الوجوه.. غني.. فقير.. سعيد.. مصطنع.. متملق.. أحمق.. بشوش.. نقي...

تلتفت.. تفتح نافذتك لتدع شعاع النور يعبث بوجنتيك.. ترى الأرض تبتعد رويدًا رويدا.. ها قد بدأت..

"الأرض".. تنظر إليها من علٍ.. كم تبدو نظيفة مرتبة وديعة كطفل نائم.. هي كغيرها من بني البشر.. تقترب منها فتتكشف لك عوراتها.. تراها تتمايل في دلال.. هيت لك.. تشعر لوهلة أنك روضتها.. وظن أهلها أنهم قادرون عليها.. يا لدقة الوصف.. هكذا أقنعتك.. أنت المالك المسيطر.. تضع سكينك على عنقها.. ثم تغفل للحظة.. تراها تنظر إليك باستهزاء.. اعبث ما شئت أيها الفاني.. فهكذا فعل من لم يتبقَّ منه إلا التراب..

تستمر الأرض في الابتعاد.. تحمل مباني تقف شامخة في وجه الزمن.. هكذا يقولون.. يُخرج الجميع "كاميراتهم" ويلتقطون صورا في انبهار.. لا تجد رغبة في نفسك لكنك تفعل.. تضغط بلا تركيز.. فجأة صرت تفتقد تلك البيوت الصغيرة.. الترتيب والنظافة المبالغ فيهما يبعثان

في نفسك الاشمئزاز.. تمامًا كعكسهما.. فهكذا الإنسان.. أعظم ما رأت العين لا يكتمل.. حقيقة أدركها الفنانون.. والآن تدركها أنت.. هي أرض تفتقد العشوائية.. هكذا تقول في قرارة نفسك.. تبتسم لطرافة التعبير.. تتساءل: ما الأدنى؟ وما الخير؟ ما التحضر؟ وما التأصل؟ وما الوطن؟

"البحر".. رهبة خفية تعتريك عند مرور الطائرة فوق البحر.. اللون الأزرق اللامتناهي يحيطك من كل اتجاه.. فقط هنا تشعر بضآلتك.. في هذه البقعة ترى نفسك طافيا.. عدسة الكاميرا تتسع في بطء مستفز.. كم من الأمتار تحتاج كي تختفي عن أعينها؟ الآن أنت.. وبعد ثوانٍ.. لن تكون.. على الأقل في عين الكاميرا..

تستفيق من خواطرك على نقاط صغيرة تومض في تعاقب ممل.. سفن تسحب خلفها خطا أبيض يحمل ماضي كل من فيها.. تتحسس سترة النجاة تحت مقعدك.. تغلق نافذتك.. وتستغرق في نوم مصطنع..

كم مرة ذهبت؟ وكم مرة غدوت؟ كم من السنين مرت؟ وكم ستمر؟ يا لعقلك الصغير.. جُلُّ الأمور يحتمل.. عوالم تدنو وأخرى تغادر في هدوء.. ذكريات تتكدس في فراغه الضيق.. وعندما تكثر الذكريات تتيقن أن الشيب يخطب ودك.. ينظم طرقاته على جنبات حائطك المتهالك.. يافع صغير العمر أنت.. هكذا قالوا.. وهكذا سوف يقولون..

لكنك الآن على أكف الرياح.. تنظر إليهم وإلى نفسك من علٍ.. ترى الحقائق أكثر وضوحًا كلما اقتربت من السماء.. كأنك تدنو من السر ذاته.. على يقين أنت أنه يقبع بداخلك.. ينتظر لحظة من صفاء ليظهر لك في رضا.. فجأة.. يُشوش نقاء عقلك.. يتكاثر الضباب تدريجيًّا أمام بصيرتك.. ضوء يخفت.. وصورة تتلاشى كأن لم تكن.. صرخة تحتبس بداخلك خلف جدار من الاستحياء.. تتلفت حولك مستغربا.. تحاول أن تجد سببا لما فقدت.. يجيبك صوت يدوي فيما شعرته برودا وقسوة:

"بدأت رحلة الهبوط في مطار... الرجاء ربط الأحزمة"..

همهمات تعلو في جنبات الطائرة.. تهانٍ بسلامة الوصول.. أعين تصحو وخزائن تُفتح في تعجل.. أطفال تبكي في حرقة.. فهكذا همست لهم فطرتهم.. عائدون إلى الأرض أنتم.. فلا وقت أنسب للبكاء.. تود لو تملك نفس رفاهيتهم.. أعمر أم عُرف حتَّم عليك التماسك؟ لا جواب..

تمد يدك لتساعد بدينًا بجوارك على الوقوف.. حقًّا لا تدري أأزعجك "شخيره" أم أسعدك.. يبتسم في امتنان.. فتبتسم.. تصافحه في حرارة.. تشعر أنك تعرفه منذ زمن.. ينطق لسانك بعد ساعات من الصداقة الصامتة:

"حمدا لله على السلامة"..

قالّه مَعَنْديش.. وهو عَنْدُه جُوّه

في يوم من الأيام وفي تلك البلدة البعيدة التي كانت يوما ما تمتلئ بالبقالين في كل أرجائها وجوانبها إلي أن فتح هذا البقال الجديد أبوابه وأصبحت خالية تماماً من البقالين إلا هو بعد أن أقنع أهل القرية أن يغلقوا واحدا تلو الآخر مستخدما حيلته ودهاؤه ، ذهب الشاب اليافع الذي بدأ يخرج من داره مؤخراً حالما أن يري الدنيا وردية كما قرأ عنها في كثير من الكتب وسمع عنها من أفواه الحكائين ولوحات الرسامين ، ذهب في ذلك الصباح إلي البقال الوحيد في القرية حاملا عشرة من الدنانير، فوجد طابورا طويلا من فقراء بلدته يحملون دنانيرهم في أيديهم وينتظرون دورهم .

وقف الشاب في آخر الطابور منتظرا دوره كغيره فوجد أمامه رجل في العقد الخامس من عمره يقف في بعض من الاستعلاء فسأله:

– لو سمحت يا أستاذ... أنا معايا عشرة دنانير... يجيبوا كيلو

حلاوة دول؟

فنظر إليه الرجل في اشمئزاز ثم قال متأففا:

- انت يا بني جديد باين عليك وحاتقرفني.. أستني دورك وشوف البقال حايديلك إيه

قال الشاب:

- يعني إيه حضرتك... يعني العشرة دنانير تجيب ولا ماتجيبش؟

قال الرجل في نفاذ صبر:

- تجيب يا سيدي... لما نشوف شطارتك بقي

نظر إليه الشاب في عدم فهم وآثر السكوت .

تحرك الطابور في بطء مستفز إلي أن جاء دور الرجل الذي يتقدمه.. فجأة ، تحول الاستعلاء إلي انكسار والاشمئزاز إلي استرضاء ، ومد يده بعشرة دنانير إلي البقال قائلا:

- يطولنا في عمرك يا باشا.. أنا كنت عايز بس.. بعد إذنك يعني.. كيلو بسطرمة كدة ياكلوهم العيال ولادي مع البيضتين... يخليك لينا يا رب

مد البقال يده ليأخذ العشرة دنانير دون حتى أن ينظر للرجل ثم مرر له باليد الأخرى قبضة من البسطرمة لا تزن حتى ربع كيلو، ثم نظر للرجل في عدائية قائلا:

– كدا كفاية عليك

قال الرجل في انكسار وهو لا يقوي علي رفع رأسه ليواجه البقال:

– بس أنا.. أنا... أنا دافع تمن كيلو

خرج الشرر من عيني البقال ورد قائلا:

– يعني مش كفاية دول... طب هات بقي مفيش خالص

أطبق الرجل علي ما يحمل من بسطرمة وقال في رضا:

– لا يا باشا ده كده رضا وميت فل وعشرة... ده كرم زيادة ده والله مش عارفين من غيرك كنا عملنا إيه والله

و هنا لم يحتمل الشاب أن يظل الصمت مبدأه فقال للبقال في ما حاول أن يبقي هادئا:

– لو سمحت.. الراجل دافع تمن كيلو.. ليه حضرتك تديله أقل؟..

نظر البقال إلي الشاب في ذهول وهتف في وجهه قائلا:

– نعم يا أخويا.. وانت مين انت عشان تقولي أدي إيه ومديش

إيه؟.. أنا أول مرة أشوفك ياد انت.. انـت بـاين عليـك جديـد وعـايز حـد يعلمك الأدب

ثم التفت إلي الرجل قائلا والشرر يتطاير من عينيه:

- وانت بقي عاجبك الكلمتين دول وعايز تاخد كيلو؟

نظر إليه الرجل في رعب وهم بالابتعاد قائلا:

- لا يا باشا.. أنا وربنا ما أعرفه.. ده باين عليه عيل ومش فاهم

أمسك الشاب بأيدي الرجل مانعا إياه أن يتركهـم وقـال للبقـال في تحد:

- لو علي الأدب فأنا ماتعدتش حدودي لحد دلوقتي.. أما بالنسبة للراجل ده فحياخـد الكيلـو بتاعـه كامـل ومـش نـاقص حتـة.. مـا اكـوام البسطرمة مالية المحل أهو زي مانا شايـف.. ده حقه.. عارف يعـني إيـه حقه ؟

كـان البقـال قـد صـدم مـن هـول المفاجـأة حتـى أنـه انتظـر ثـوان ليستوعب ثم قال وقد شعر أن الرجل الآخر قد بدأ يشعر بحقه المنهوب:

- يا بني انت باين عليك جديد وانا مش عايز أءزيك.. امـشي مـن وشي دلوقتي وانا حاسامحك ومش حاجي جنبك.

ركز الشاب نظراته عل البقال كسهام من نار وقال في إصرار:

- بقولك حياخد الكيلو يعني حياخد الكيلو..

كان الآخرون في الطابور بدأوا في التجمع مشكلين نصف دائرة مركزها الرجل والشاب وشرع كل منهم في التهامس والمشاورة إلي أن قال أحدهم:

- بصراحة الولد عنده حق.. ما هو يعني حضرتك يا عم البقال منقصلنا الكمية بزيادة يعني .

و قال آخر:

- واحنا تعبنا أوي وجعنا وجبنا جاز علشان نجيب شوية الدنانير دول .

و بدأت الأصوات تتعالي واحدا تلو الآخر إلي أن قال الشاب وقد شعر بأن من حوله يساندونه:

- انت بقالك بتاع تلاتين سنة عمال بتضحك علي الناس دي ومسففها التراب وجه الوقت اللي الناس ترجع فيه فلوسها اللي انت نهبتها..

بدأت علامات الذعر تظهر علي قسمات وجه البقال عندما وجد

نظرات الكراهية تملأ عيون من كانوا منذ دقائق تحت رحمته . تلفت يمينا ويسارا عسي أن يجد مخرجا وقد بدأت جموع البشر تقترب منه مطالبة بالفتك به . إلي أن ظهر فجأة من داخل الدكان رجل أشيب بدت علي ملامحه الحكمة والوقار وخطب في الناس قائلا:

- باااااس.. اهدوا يا اخونا.. خلاص الراجل البقال ده أيامه خلصت.. انتو عندكو حق.. ده كان واكل قوتكم ومشرد عيالكم... خلاص الزمن ده خلص ومش حايرجع تاني.. انا حاخده أحبسه في الدكان.. وحاقف انا ابيعلكم كام يوم كدا لحد ما نشوف صرفة .

لم تصدق الحشود نفسها من الفرحة وشرعوا يصفقون ويهتفون باسم البقال الجديد ويمنون أنفسهم بما يحمله لهم من أصناف البقالة بأجور زهيدة . ورأي الشاب فرحة أهل البلدة فابتسم في رضا ثم سأل الرجل صاحب المشكلة من البداية:

- هو مين الراجل الكبير ده؟

قال الرجل:

- ده حارس محل البقالة.. شغال مع البقال، بقاله بتاع عشرين سنة.. بس الشهادة لله عمرنا ما شفنا منه حاجة وحشة

فقال الشاب:

- طب شفتوا حاجة حلوة ؟

رد الرجل:

- لأ برضه.. بس هوه راجل سكرة.. حاتحبه والله

نظر الشاب إلـي الحـارس الـذي أصـبح يلعـب دور البقـال فوجـده ينظر إليه بدوره ويقول في ود:

- أنا مبسوط منك أوي.. إنت طلعت أرجل من الناس دي كلـها..

صافح الشاب الحارس وسأله في اطمئنان:

- طب وبالنسبة للبقال.. حاتعمل معاه إيه؟

قال الحارس:

- ماتقلقش بقي.. ده انا حانفخهولك بس أستني عليه شوية أظبط الدكانة أحسن دا كان خاربها خالص... . انت كنت جاي عايز إيه بقي؟

رد الشاب قائلا:

- كنت عايز كيلو حلاوة..

فقال الحارس في أسف:

- بص يابني.. انت باين عليك عاقل.. أصل الدكانة بايظة والبضاعة مش مترتبة.. تعلالي بعد اسبوع كدة اكون ظبطت الدنيا واديلك الحلاوة اللي انت عايزها..

فقال الشاب:

- ماشي يا سيدي.. مفيش مشكلة.. بس هوه فيه أصلا حلاوة ولا مفيش ؟

فرد الحارس بسرعة:

- فيه طبعا.. الأسبوع الجاي إن شاء الله

كان أهل البلدة كلهم يشعرون بالسعادة والرضا وبدأ كل منهم يحكي بطولاته التي تتلخص في جملة قالها في وجه البقال الي زوجته وأقاربه وأصحابه ، ومر الأسبوع ، وبدأ أهل البلدة في التجمع ثانية أمام محل البقالة في شكل الطابور المعتاد وعندما جاء دور الشاب ، أخرج العشرة دنانير وناولها إلي الحارس قائلا:

- صباح الفل.. هات بقي كيلو الحلاوة اللي قولنا عليه

تردد الحارس قليلا ثم قال له:

- بصراحة يا بني الدنيا لسه مش متظبطة في المحل ومحتاج

شـوية وقـت كمـان.. إيـه رأيـك تاخـد لانـشون؟... خـد لانـشون.. حلـو اللانشون.

– بس أنا كنت عايز حلاوة.. مش انت قلتلي حاتبقي جاهزة؟

– معلش بقي.. خد لانشون واستني عليا أسبوع كمان كدا لحـد مـا اظبط الحلاوة.

تردد الشاب لبضعة لحظات ثم مـد يـده ليأخـذ لفافـة اللانـشون ، حانت منه نظـرة سـريعة داخـل الـدكان فكأنمـا رأي البقـال القـديم مـارا بالداخل، فتوقف لبرهة ثم لم يلبث أن كذب عينه ومضي إلي بيته .

بدأت الأحـوال في الأسـبوع الثـاني تعـود لمـا كانـت عليـه وهـدأت الفرحة في أعين أهل البلدة في ظل عودة كل منـه إلـي حياتـه كـأن شيئا لم يكن ، وبعد مرور الأسبوع الثاني عاد النـاس ليـذهبوا إلـي دكـان البقالـة وعندما جاء دور الشاب ثانية لمح داخل الدكان خيالا للبقال القديم يجلـس علي طاولة ويلوك طعاما في فمه فسأل الحارس:

– هوه فيه إيه؟.. هو انت ازاي سايبه كدة بره.. انت مش قولتلي حاتحبسه..

التفت الحارس لينظر الـي البقـال القـديم ثـم عـاد لينظـر للـشاب

قائلا:

- ده بس وقت الأكل بتاعه.. أنا كل يوم بارميهوله جوة يعد ياكله وهو محبوس، بس قلت معلش مرة كدة ياكل برة... بس ماتقلقش ده انا حانفخهولك...

نظر اليه الفتي نظرة ما بين الشك والتصديق ثم مد اليه يده بالدنانير وقال له:

- طب اديني الحلاوة بقي أحسن اللانشون اللي انت ادتهولي ده قلبلي معدتي وجابلي إسهال وكان حايموتني

عض الحارس علي شفتيه في ضيق قائلا:

- لا لا ألف سلامة عليك... بلاش موضوع اللانشون ده خالص لو حايتعبك.. خد يا سيدي.. دول شوية جبنة إستنبولي ايييييه... يستاهلو بقك.. كل وادعيلي

أزاح الشاب يد الحارس وقال مقطبا جبينه:

- بقولك اييه.. لا استنبولي ولا غيره... أنا بقولك عايز حلاوة زي ماانتا وعدتني الاسبوع اللي فات واللي قبله.. وانت بعضمة لسانك قايلي ان فيه حلاوة..

فقال الحارس وهو يضع لفافة الجبن أمامه في عصبية:

– ماهو انا لسة ماظبطتش المحل ومحتاج أظبطه عشان اجيبلك الحلاوة

قال الشاب:

– مانتا بقالك أسبوعين بتقولي نفس الكلام.. وبعدين مانا شايف الحلاوة موجودة وراك أهو.. ما تجيب الكيلو خليني أمشي

فقال الرجل وهو يقلب كفيه:

– وبعدين بقي.. خلاص تعالي الاسبوع الجاي وانا حاظبطك.. وعد مني حتلاقي الحلاوة في ايدك..

ثم علا صوته عن قصد قائلا:

– وبعدين خد بالك إن انت معطل العالم اللي وراك دول كلهم

نظر الفتي خلفه فوجد أهل البلدة وقد بدأوا في التأفف وقال أحدهم في ضجر:

– معلش بقي يا سيدي.. مشيها.. ما الراجل قالك الاسبوع الجاي.. وبعدين كلنا عاوزين حاجات وبناخد حاجات تانية او ماناخدش خالص وبنعديها عشان العجلة تمشي.. ياللا خد الجبنة كدا وربنا يكرم

قلب الشاب نظراته ما بين الحارس والناس ثم أخذ الجبن في عدم رضا وذهب إلي بيته وهو يشعر أن رأسه مقبل علي الانفجار من هول التفكير والحيرة .

و بعد أن مر الأسبوع الثالث وذهب الجمع إلي الحارس مرة أخري ، نظر الشاب قبل أن يأتي دوره إلي داخل الدكان فوجد البقال القديم مستلقيا علي فراش وثير ويمسك بين يديه شطيرة خبز تحوي من الحلاوة ما يعادل سمكه خمسة سنتيمترات ، فشهق في دهشة وربت علي كتف الرجل الذي أمامه وسأله قائلا:

- انت شايف اللي انا شايفه؟

فالتفت الرجل:

- فيه إيه يا عم انت؟ ايدك عاملة زي المسمار في كتفي!

- معلش يا سيدي.. بص كدة جوا المحل.. شايف البقال القديم نايم علي سرير مستريح وعمال ياكل في الحلاوة كأنه قاعد في عزبة أمه!

- يا عم واحنا مالنا.. هو مش الحارس قال حاينفخه؟.. خلاص

- ماشي بس لو هوه ده النفخ يعني يبقي انا عايز اللي ينفخني... وبعدين ده انا ريقي نشف عشان شوية حلاوة بقالي تلات اسابيع ودافع

تمنها من لحمي ومانولتهاش.. آجي ألاقيه عمال يلهط زي الحمار في النجيلة.. لا يا اخوانا ماياكلش الكلام ده..

– بقولك إيه.. مش عايزين مشاكل.. ماصدقنا الدنيا رجعت زي الأول

– وهو احنا كنا هبِّينا في البقال الأولاني عشان الدنيا ترجع زي الأول؟.. انا مش موافق علي الكلام ده

– اهدي كدا وصلي علي النبي.. ده شيطان والله اللي عايز يعمل فتنة في البلد الصغيرة بتاعتنا.. اهدي يا بني ماتطاوعش شيطانك

– يا عم فتنة إيه وشيطان إيه؟.. هو أنا جايب حاجة من عند أمي.. أنا بقولك اللي أنا وانت شايفينه

بدا الرجل وكأنه مل من المناقشة فقال للشاب:

– لما ييجي دورك ابقي اتكلم.. بس ملكش دعوة بية.. انا بقولك أهو

مرت الدقائق سريعا وجاء دور الشاب فمد يده بالدنانير إلي الحارس قائلا:

– مبدئيا هات الحلاوة وبعد كدة نبقي نشوف باقي الحوارات

نظر إليه الحارس بتأفف تحول سريعا إلي ود قائلا:

– والله انت ابن حلال.. لسة وصلالي طلبية جبنة تركـي اييبيـه... قلت ماحدش حايستفتحها غيرك..

و هنا انفجر الشاب في وجه الحارس قائلا:

– بقولك إيه.. انا حاعديلك الجبنة الاستنبولي البايظة اللـي انـت أكلتهالي.. بس لو ما أخدتش الحلاوة دلوقتي حـايبقي آخـر يـوم ليـك في الدكان ده..

فقال الحارس:

– مانتا بس لو تاخد الجبنة التركـي وتـستني عليـا أسـبوع كمـان أظبطلك الحلاوة

قطب الشاب حاجبيه أكثر صارخا:

– أومـال الحرامـي اللـي عنـدك جـوه ده اللـي انـت عمـال تقـولي حانفخهولك وماكنتش عارف انك قصدك تنفخه حلاوة مش هـوا ، عمـال يضرب حلاوة وهو قاعد علي سرير عمري ولا أي حد من البلدة قعـد عليـه ولا شهريار.. تسميه إيه ده؟... بقولك انـا حاخـد الحـلاوة يعـني حاخـد الحلاوة..

قال الحارس وهو يحاول أن يعلي من صوته ليسمع الآخرين:

- إحضرونا والنبي يا اخونا.. هو مش الخروف قبل ما يدبحوه بيٌّعُدوا يأكلوا فيه ويأكلوا فيه وبعدين يدبحوه؟.. أهو هو ده اللي أنا بعمله.. غلط الكلام يا اخونا ؟

تحركت أغلب الرؤوس تقريبا لتومئ بالموافقة علي ما قاله الحارس فنظر إليهم الشاب وصرخ فيهم قائلا:

- إيييه ؟ هو انتو بجد موافقين علي الكلام ده؟.. ده مفيش كدة يعني

ثم التفت الي الحارس وصرخ في وجهه هو الآخر:

- طب يا عم أكِّله حلاوة أكله جاتوه.. اللي انته عايزه.. بس هاتلي الحلاوة بتاعتي طيب.. ده انا دافع تمنها

فقال له الحارس:

- إسمع مني بس.. خد الجبنة التركي وحاتدعيلي

- يا عم انا عايز حلاوة.. انت خسران إيه؟.. ما انت عندك جوة أهو

قال الحارس وقد علا صوته أكثر وأكثر:

- شكلك كدة مش حاتخلص وحاتعطل الناس اللي وراك

و سمع الشاب صوتا من خلفه أتبعه آخر وآخر يطالبونه بالرضا بالجبن التركي الذي أنعمه عليه الحارس ولكنه قال في تحد وإصرار غريبين:

و أنا مش متحرك من هنا إلا لما آخد الحلاوة.. ده حقي ومش حاسيبه...

و حتى يومنا هذا ظل الشاب متمسكا بحقه في أن يحصل علي الحلاوة وظل الحارس يبيع الناس ما لا يريدون وظل البقال القديم مستلقيا علي فراشه ينظر الي الجميع في تشفي وظل الناس يقلبون أنظارهم ما بين الحارس والشاب والبقال غير عابئين ولسان حالهم يقول:

" يا عم واحنا مالنا.. اياكش تولع

مقالات



"المُسَكَّف" وأنا.. و"ياكش تولع"

نتحدث هنا عن ظاهرة جديدة بدأت تستشري في أوصال المجتمع المصري لتتجه به إلى أدنى مما هو دانٍ.. ظاهرة نشأت كنتيجة طبيعية لأسلوب "الفتي" -بتسكين التاء والياء- المصري المعتاد الذي يمكن تبسيطه واختصاره في (أنا أعرف كل ما يدور في هذه البلاد.. ضحكة تهكم وسخرية من هؤلاء الحمقى اللي نايمين في العسل ومش داريين باللي بيحصل حواليهم).. وينتهي الحديث دائمًا بـ"بكرة تقولوا فلان قال".

ظاهرتنا التي نتحدث عنها هي التي يمكن أن نسميها "ظاهرة سرعة الاقتناع".. أو بمعني أكثر وضوحا.. القدرة على استقبال المعلومة والاستعداد لتصديقها والاقتناع بها دون أن "نوجع دماغنا" بتحليلها ومنطقتها والتفكير في صحتها أو عدم صحتها.. فنجد أننا نصغي بآذاننا ونفغر أفواهنا تلهفًا لسماع تحليلات "فلان الفلاني" الذي لم يترك جريدة إلا وقتلها بحثًا ولم يغِب عن ناظريه يومًا أي من "العاشرة مساء" أو "القاهرة اليوم" أو حتى "استاد بلدنا".

إنه ذلك النموذج من البشر الذي تجده جالسًا طوال اليوم على كل قهوة بلدي أو "كافيه" أفرنجي على أرض المحروسة ممسكًا بجريدة ما ولا يكف عن "مصمصة" شفتيه قائلاً كلما قلب صفحات الجريدة: "والله ما هي نافعة".. ويخرج همه وغله في قتل شعلة سيجاره "السوبر" في كعب نعله.. ثم لا يلبث أن يشعر بحاجة تربة المكان الجافة لكتلة من لعابه لترويها فلا يبخل عليها.. ثم يبدأ بالتحدث بصوت عالٍ عن المؤامرة التي دُبرت لرجل الأعمال الفلاني لأنه لم يوافق على بيع "حتة" أرض لمسئول كبير في الدولة كانت ابنته تطمع فيها لتقيم عليها مشروع "جيم وسبا" لها و"لصاحباتها".. وكيف أن الابنة "زعلت أوي من عمو" حتى أن وصلت بها مبالغ الحزن إلى النوم على فراشها وحدها لليلة كاملة من دون "كوكي" (الدبدوب البنبي اللي جابهولها سمسم في "الفلنتاينز داي" المحشي بريش النعام).

لسنا هنا بصدد الحديث عن هذا النوع من "الفتّايين" الذين لا يشجعون مصر "واحنا مش معاهم".. ولسنا بالطبع بصدد الحديث عن "كوكي" الدبدوب أو سمسم "بتاع الفلنتاين".. لكننا نتحدث عن أولئك الذين يلتفون حول هذا النوع من "الفتايين" وينزلون كلامه منازل الكتب السماوية.. فقط لأنه الأستاذ (المسكّف) -هكذا كما ينطقها سريعو الاقتناع

- الذي يعرف ما لا نعرف ويرى ما لا تستطيع أعيننا رؤيته.. الغريب أنه عندما يظهر (مسكَّف) آخر ليقول عكس ما قاله (المسكَّف) الأول مع إضافة بعض القرائن والدلائل على صحة كلامه.. فإنهم يقتنعون بسهولة تامة.. بل ويضربون أنفسهم ألف "صرمة" لأنهم لم ينتبهوا لما قاله (المسكَّف) الثاني عندما سرد لهم (المسكَّف) الأول القصة ذاتها.. ثم يظهر الأول فيصارحونه بمنطق الثاني فيبدأ بالرد على نقاط الثاني فيعودون لتصديق الأول.. ويقومون بضرب أنفسهم بنفس "الصرمة" إلى أن يأتي الثاني مرة أخرى.. وهكذا إلى أن يشاء الله.

وهنا يجب أن نسأل: هل هذا الاقتناع السريع والرغبة في التصديق نتاج عدم وجود وعي كافٍ؟ وإذا كان هكذا فهل لنا أن نقول إن غالبية الشعب لا تتمتع بهذه الصفة الحميدة بالنسبة لنا والذميمة بالنسبة لأصحاب "الفكر الجديد"؟ وهل هذا التغييب والجهل بالأمور نتاج مؤامرة ما؟ عامة.. أنا لست مع نظرية المؤامرة.. ولكن إذا كانت مؤامرة بالفعل ووصلت نتائجها لهذه المرحلة من الجهل وعدم الإدراك في هذا الكم الهائل من البشر.. فأنا أرفع القبعة وأنحني احتراما لهذا الذي سولت له نفسه القيام بهذه المؤامرة بهذه الدقة وهذا الإتقان النابعين حتمًا من يقين صادق وإيمان بأهدافها السامية التي تتمثل في إبقاء الوضع كما هو عليه

وإلغاء مصطلح التغيير من اللغة العربيـة عامـة والمصرية خاصـة.. لأنهـا آتت ثمارها وحققت نجاحا ساحقا.

وهل هذه الظاهرة نابعة من عدم وجود ثقة بالنفس؟ أي أنه يصدق هذه الحكايات فقط لينفي عـن نفسه صـفة الجهـل.. بـل ويعلـق في بعـض الأحيان ليظهر بمظهر الفاهم على طريقة (انت بتهز دماغك ليـه يـاد؟).. فإنه لا يصدق في قرارة نفسه أنه يمكن أن يصل بأي حـال مـن الأحـوال إلى رأي أو وجهـة نظر في هذه الـدنيا بخـلاف آرائـه بـين جـدران المنـزل وفي مجال عمله إذا وجد العمل أصلا.. أما أمور الـدنيا - صـغيرها وكبيرهـا.. داخلها وخارجها - فلا يعنيه منها شيء.. اللهم إلا بعض تلك المعلومـات التي يسمعها من صديقنا (المـسكَّف).. وهـذا يأخـذنا إلى سـبب آخـر.. ألا وهو اللامبالاة وعدم الاهتمام أو الاكتراث بهذه الأمور لمجرد أنها خـارق نطاق دائرته الخاصة التي تتمثل في المنزل والعمل.. والعمل بمبدأ (يـا عـم واحنا مالنا؟ ياكش تولع).. هذا المبدأ الذي تتبعه هذه النوعية مـن البـشر ظنًّا منهم أن هذه الأمور تتبع للناس الكبار الذين يمتلكـون هـذه الـبلاد.. ولا يحـاولون حتـى الـتفكير في تـأثيرات هـذه الأمـور الكـبيرة علـى مجتمعاتهم الصغيرة التي تنحصر في المنزل والعمل.

هذه التأثيرات التي يراها الأعمى ويشعر بها المعتوه وذو الغفلـة..

هذه التأثيرات التي جعلت ابنه يصاب بالالتهاب الكبدي من جرَّاء أكل النباتات المسرطنة التي ظهرت عن طريق صفقات مشبوهة لهؤلاء الناس الكبار..

- هذه التأثيرات التي جعلته ينتقل من بين "شغلانة" وأخرى براتب أقصاه 200 جنيه فقط ليؤمِّن عيشة غير كريمة لأسرته.. لأن بلاده "السمرا" لم تستطِع توفير فرصة عمل تسمح له بأن يعامَل كالبشر في هذه الدنيا..

- هذه التأثيرات التي جعلته يرضى بالعيش تحت ظل صخرة قابلة للسقوط في أي وقت لتحيله هو وعائلته ترابًا في جزء من الثانية فقط لأنه اعتبر هذه الصخرة سقفًا لأربعة حوائط من صفيح.. بعدما هدمت السيول سقفا من خشب كان يغطي ولا يستر.. هذا فقط لأن هناك من الناس الكبار من قرر فجأة أن منزله السابق يقع في منطقة سياحية يجب استغلالها..

- هذه التأثيرات التي جعلته يرضى بالدرجة الثالثة في هذا القطار المدجج بالبشر.. وجعلت الدرجة الثالثة نفسها لا ترضى به ليصل إلى وجهته محطما أو محروقا أو مسروقا في أحسن الظروف.. فقط لأن تاكسي العاصمة والأوتوبيس المكيف هما جُل ما يشغل بال مسئولي الطرق

والمواصلات..

سيدي المقتنع.. المسلِّم للأمر الواقع.. الراضي الصامت "المطنش".. لا أملك إلا أن أخبرك أن هذه الأمور ليست حكرًا على علية القوم أو "طبقة المنتفعين بمصر" كما يسميها الأستاذ بلال فضل.. بل إنها في صميم حياتك إن لم تكن هي حياتك ذاتها.. لك أن تفهمها وتشارك فيها بل وتغيرها إذا لزم الأمر.

ولتعرف أن التسليم بالحال هو داء معدٍ يصيب مَن حولك إذا استشعروه فيك.. فلا تكن ممن يثبطون العزائم ويقتلون الحماسة ويقولون في كل مناسبة: "يا عم واحنا مالنا؟ ياكش تولع".

هل يشبه المصريون "كاريمان"؟

"حودة البرازيلي".. نادرا ما لم يقابل أحدنا هذه الشخصية خلال مسيرة حياته.. هذا الفتى الذي يقطن الحي نفسه ولا يخلع "السلبس" عن قدميه أبدًا ويملك من المهارات الكروية ما يحسده عليه ميسي وكريستيانو ومارادونا ذاته.. وعلى المنوال نفسه دائمًا ما نصادف "إبراهيم الألماني" أو "حمادة الياباني". غالبًا ما يكون إبراهيم فذًّا في خبايا السيارات كالألمان بداية من "الكتاوت" وحتى "الدروبكس" و"الرولمان بلي" خلافًا لحمادة الذي لا يخرج أي كاسيت أو تلفاز أو أي جهاز كهربي من تحت مظلته الواعية العالمة ببواطنه وخباياه.

- دعنا لا نتكلم ها هنا عن "سعيد المصري" الذي وُلد ليجد نفسه ملتصقا بهذا الاسم مدى الحياة الذي اكتسبه عن غير مهارة معينة خلافًا لأصدقائه الحاصلين على جنسيات أخرى لتفوقهم في شيء ما.

- المهم أنني في "دائرة الرحلة" قابلت الكثير من هذه الألقاب التي تنطبق غالبًا ولا تنطبق أحيانًا على أصحابها إلى أن شاء الله أن ألتقي

"خوسيه المكسيكي".

قدم "خوسيه" إلى مكان عملي رأسًا من بلاده ليتسلم وظيفته الجديدة ويستقر مباشرة إلى جواري ليبدأ أول حوار لي مع ابن "الأزتك".. وقد كان أول ما قاله صادمًا..

فقد كانت ابتسامته العريضة وأساريره المتهللة عندما علم بمصريتي من أكبر الدلائل على عشق هؤلاء اللاتينيين لمصر والمصريين.. وأنني لم أكف يومًا عن اعتبار المكسيك جزءًا من أمريكا اللاتينية على الرغم من وقوعها في الجزء الشمالي.. فلا يمكن بأي حال من الأحوال مقارنة هذه الوجوه السمراء الودود وهذه الابتسامة العريضة بجيرانهم الشماليين ذوي الوجوه البيضاء الكالحة والابتسامة المصطنعة.

- كانت هذه البداية مبشرة على الأقل من ناحيتي.. فقد أفاقت بداخلي ما نسميه "النعرة المصرية".. فابتسمت ابتسامة واثقة وصافحته كما لو كنت أحد ملوك الأسرة السادسة.. إلى أن بدأ "خوسيه" حديثه بجملة بددت هذه النعرة في جزء من الثانية:

- "دائمًا ما تمنيت أن أقابل مصريا.. فكل المصريين يشبهون كاريمان".

انحنى رأسي في خجل مصطنع.. ثم استفقت فجأة على آخر كلمة

على طريقة إسماعيل يس لأنفجر في وجهه مستنكرا: "إيييييييه؟"..

فقال والابتسامة العريضة لا تفارق شفتيه:

- "فعلا.. كل المصريين يشبهون كاريمان".

سمعت بوضوح هذه المرة.. فحاولت أن أهدأ وأن أوضح له كيف أننا "رجالة أوي" وأنه لا يصح أن نعيب - نحن أبناء العالم الثالث - في بعضنا البعض حتى لا تُشمت فينا أبناء العالمين الأول والثاني.. لكنه وبإصرار شديد قال ضاغطًا على كلماته:

- "وأنا أقسم إن كل المصريين يشبهون كاريمان".

كنت قد فقدت أعصابي هذه المرة وهممت أن أمسك بتلابيبه و"أناوله بونية مخبرين".. ناهيك عن بعض المعلقات والقصائد التي يعف لسان أي رجل شارع محترم عن ذكرها.. بالإضافة إلى بعض من "فرش الملايات" الذي لا يضر أحدًا على غرار "يلا يا بلد مافيهاش رجالة" أو "الراجل الوحيد اللي فيكو سابكو وراح برشلونة ومقعدينه احتياطي".. وكثيرًا من هذا القبيل.

- إلا أنه لاحقني مستغربًا رد فعلي العنيف بقوله: "لا أدري ما يزعجك لهذا الحد.. لكننا نعتز بكاليمان جدا".. ماذا؟ هل قال كاليمان؟

طلبت منه أن يكرر ما قاله.. كاليمان.. كاليمان...

- إذًا فهي "كاليمان" وليست "كاريمان".. الفرق ليس كبيرًا ولكن وقع كاليمان على الأذن خفيف يمكن تقبله جدلاً من أسماء الرجال على عكس كاريمان.

هدأت قليلاً لأسمع منه قصة من أغرب ما سمعت..

- بدأ خوسيه المكسيكي يخبرني عن هذا الـ"كاليمان" وكيف أنه من أهم أبطال الرواية المصورة - "الكوميكس" - في المكسيك وأن أطفال وشباب جيله والأجيال التالية يرونه كصورة مثالية وقدوة ومثل أعلى كـ"سوبر مان" وهرقل وأبطال آخرين.. لكن المفاجأة ها هنا أن "كاليمان" مصري الجنسية.

- لا أدري حقًا كم من المصريين على دراية بهذا الكاليمان.. لكنني بحثت كثيرًا على الـ"نت" فلم أجد ولو معلومة صغيرة تذكره بالعربية.. حتى يئست.. فطلبت من خوسيه أن يريني صورته.

صورة كرتونية مرسومة بعناية لوجه أبيض وسيم كأدهم صبري.. يعتمر قبعة ملفوفة أو "عمة" حول رأسه تتوسطها جوهرة تتوهج بألوان عدَّة.. وقوام ممشوق ككل أبطال الروايات.. بالإضافة إلى حزام ملفوف بعناية حول الخصر ويتدلى منه خنجر وعدة أسلحة أخرى لم أتبينها.

- قال خوسيه:

"عندما بدأت الثورة المكسيكية ضد الحكومة في الربع الأول من القرن المنقضي.. كانت الجامعات هي مهد الاحتجاجات والمظاهرات التي كانت خليطًا من الطلبة والأساتذة.. وحيث إن الحكومة كانت تحكم قبضتها على البلاد.. فحالت دون ميلاد بطل من أفراد الشعب يحمل بيده لواء التغيير.. لذا فقد بدأ بعض الأساتذة في التفكير في حل موازٍ غير مضر.. حتى طرأت لأحدهم وهو يدعى (رفائيل نافارو) فكرة البطل الخيالي ذي القوة الخارقة والإمكانات اللامحدودة الذي يسعى إلى إرساء قواعد الحق والعدل في مجتمع أصبح الظلم سمة سائدة فيه".

- ما يثير الاستغراب حقًّا أن هذا المؤلف كان قد دار العالم وقتها شرقه وغربه وزار من البلاد والأقطار ما لا يمكن حصره بسهولة.. إلا أنه اختار بكل ثقة أن تكون جنسية هذا البطل.. مصرية.

- حاولت كثيرًا أن أعرف السبب وأن أتقمص شخصية هذا المؤلف لأرى بعين الخيال ما رآه مميزًا في الشخصية المصرية ليقرر أن يقدم لبلاده رمزا يتبعونه من هذا البلد.. فذهبت محاولاتي قاطبة أدراج الرياح.

أرجوك لا تحدثني عن الحضارة والأصالة والطيبة.. لا تحدثني عن أذكى طفل في العالم وأفضل من يعمل في "بلاد بره" وأفضل طيارين

ومهندسين وعمال وأطباء..

كيف نقنع أنفسنا بهذا الهراء ونحن نسير على وتيرة واحدة لم تتغير طوال أكثر من خمسين عامًا؟

كيف لأذكى طفل في العالم أن يقنع ويسلم بواقعه الذي فرض عليه أن يعمل بائعا للـ"موبيلات" وهو الحاصل على بكالوريوس ويتعلل بأنها القسمة والنصيب ورضا و"ميت فل وعشرة"؟

- ألم يأنِ لنا أن نتوقف عن نغمة الأفضل والأحسن التي لازمتنا طوال خمسين عامًا لم نرَ فيها النور؟

كنت أقرأ منذ فترة عن كيفية علاج المدمن في خطوات عدة.. أولاها: الاعتراف..

أنا اسمي فلان.. وأنا مدمن..

ألم يأتِ الوقت الذي نعترف فيه بموقعنا في مؤخرة ترتيب البلاد.. وأننا صرنا مدمني خنوع وخوف وتسليم بحالنا "الزفت"؟

- أعتقد أن أي كائن من كان.. كان ليسعده وجود بطل أسطوري يحمل جنسيته نفسها.. لكنني لسبب أعلمه جيدًا لم أطرب لسماع هذا الخبر.

– بدا على صديقي المكسيكي الاستغراب عندما رآني أحلق بعيني في اللاشيء وثمة دمعة تحارب كي تنحدر من عيني خلال روايته عن هذا الكاليمان.. فآثر أن يحترم اللحظة وسكت عن الكلام المباح والتفت يعمل في صمت.

لم ألحظ سكوت خوسيه لأن سؤالاً بات يلح في ذهني كطبول حرب تأبى أن تتوقف.

سؤالاً أعرف جوابه جيدًا.. لكنني أغالط نفسي وأحاربها كي لا أجيب فتسقط الآمال ويستفيق العقل على حقيقة مرة لا رجوع فيها.

سؤالاً لا تمكن إجابته بالسلب أو الإيجاب.. وتكفي تنهيدة حسرة وألم لتعبر لسائله عما يجيش بصدر مجيبه.

هل يشبه المصريون كاليمان؟

كتبت هذه المقالة قبل ثورة 25 يناير بحوالي أربعة أشهر.. في وقت كاد يتسلل فيه اليأس إلى قلبي في غفلة من يقيني.. قبل أن أتيقن من وجود إجابة حاسمة لسؤالي وهي ما يمكن قوله بكل ثقة: نعم.. المصريون يشبهون "كاليمان"

من قتلك يا خالد؟*

لكِ الله يا مصر.. لم يكفِهم أن عاشوا في الأرض فسادًا وملأوها فقرًا ومعيشة ضنكًا.. بل صارت أيضًا حقيقة الموت الهانئ المطمئن على فراش متواضع دربًا من دروب المستحيل.

– لكِ الله يا مصر.. لبنان – الكويت – فرنسا – أمريكا.. وأخيرًا "سيدي جابر"..

– لكِ الله يا مصر.. كلمة عادة ما تحمل بين طياتها إيمانا وتوكلا.. لكنها صارت في يومنا هذا نوعا من الجبن والتواكل وإظهار إيمان يخفي جبنا وخنوعا.

ما كان وما صار وما صار يكون كل يوم في بلادنا يجعلني أتساءل:

يا ترى.. من قتلك يا خالد؟

– هل هم مجموعة من المخبرين أكاد أجزم أنهم لا يحظون بظروف معيشية أفضل مما تحظى أنت.. لكنهم وجدوا ما يفرغون فيه

* كُتب هذا المقال بعد حادثة مقتل خالد سعيد مباشرة

كبتهم عكس بقية الشعب المكبوت الذي سلم واعتبر الكبت نوعا من القرين الأزلي الذي يستحيل العيش من دونه؟

هل هم مجموعة من المخبرين امتدت إليهم عدوى السلطة المطلقة التي تفتح الأبواب وتسمح بكل ما هو ممنوع وتحلل كل ما هو حرام..

- أم أن من قتلك هي منظومة تسمى "الشرطة" دأبت على اعتبار نفسها فوق الشرع والقانون وقامت على إقناع أبنائها بأنهم من جنس "آري" أعلى ممن تمتلئ بهم الشوارع والمقاهي وممن لا يستحقون إلا "ضرب الجزم" الذي صار لاحقًا قتلا وتعذيبا..

- أم أن من قتلك هو نظام بأكمله اعتدنا منه على تزييف الحقائق وتبجيل السارق وقطع يد الأمين وإنصاف الظالم ومعاقبة المظلوم.. نظام حط على قلوبنا كالجاثوم ويأبى أن يرحل عنا حتى إذا ما رحلنا نحن قبله؟

عذرا يا خالد.. حاولت أن أصرف انتباهك إلى من لم يقتلوك فلم أستطِع.

حاولت تحويل دفة الاتهام إلى يد مخبر أو ضابط أو نظام.. لكنني لم أستطِع.

نعم.. أنا من قتلك يا خالد..

- أنا من قتلك بخنوعي واستسلامي ولا مبالاتي.

أنا من قتلك بنسياني ما حدث بعد أسبوع أو شهر على الأكثر وعودتي لحياتي الطبيعية كأن شيئًا لم يكن.. فقط لأن هذه الفاجعة لم تطل أحدًا من أبنائي و"طالما ولادي بخير.. ياكش تولع".

- أنا من قتلك بصمتي وخوفي من نفس مصيرك عندما شاهدت من لم تطَله رحمة الله ينهال عليك ضربا وطعنا وسحلا وإهانة لم ينجِّك منها إلا الموت.

- أنا من قتلك بسلبيتي التي قتلت عندي شيئًا يسمي الاختيار فصرت مسيَّرًا في الأرض أربط حبلاً حول عنقي وأجر حملاً تنوء به العصبة أولو القوة حتى لا تتوقف سفينة الحياة الشاطحة في مياه ضحلة منذ ثلاثين عامًا.

نعم.. أنا من قتلك يا خالد.. لكني لن أتحمل تبعات ما فعلت.. سأهرب كما أهرب طوال ثلاثين عامًا.. فأنا اعتدت الهرب من كل ما يمكن أن ينغص عليَّ معيشتي التي بالكاد تسير ببطء نحو الهوة.

سأهرب كما هربت دومًا من قطار محروق أو دم ملوث أو

انتخابات مزورة.

- لكن قبل هروبي سأسدي لك نصيحة ليس لك إلا أن تعمل بها..

فلتكثر يا خالد من قول حسبي الله ونعم الوكيل.. ولتدعُ الله كثيرًا أن تزول الغمة عن الأمة.. ولتكتب شعرًا يا خالد.. ولكن إياك.. إياك والمشاركة في مظاهرة أو اعتصام.. وإياك أن تكتب أو تلفظ بالقول ما يعارض نظاما أو يهاجم مهما.. وإياك من قول الحق يا خالد.. ولتكن هذه الجملة في أذنك ما حييت:

"مالكش دعوة بالسياسة يا خالد".

الآن.. أكتب*

ياااااااه.. ده كان كاتم على نفسنا كتمة ابن الـ"...".

شعرت وأنا أرددها صباح السبت 12 فبراير 2011 وكأن جاثومًا ثقيلاً قد حلَّ من على صدري وتركه لشهيقه وزفيره يمرحان فيه كما يشاءان دون قيد أو شرط..

شعرت بأنني لست وحدي فقط من يرددها بل كان يفعل كل ما هو حولي من عاقل وجماد.. فها هي الشمس تلقي بضيائها كما لم تفعل من قبل.. فلطالما كانت إشراقتها على استحياء.. أو هكذا كنا نراها طيلة عقود وعقود ضل ضياؤها طريق أعيننا.. ها هي تلقي بشعاعها الفتان ليلمس نسمات تلفح وجوهنا بلطف كأب حنون يربت على وجنتي طفل صغير ليطمئنه أن يا بني لا تخف فقد مضى عصر الاستعباد إلى غير رجعة..

صباح ليس كأي صباح.. أشرقت فيه الوجوه جميعها بابتسامة

---

* كُتب هذا المقال صباح يوم 12 فبراير 2011.. وهو اليوم الذي يتبع زوال جاثوم يسمى مبارك من على صدورنا

رضا وأمل كادت تختفي إلى الأبد.. ابتسامة تخبرك بصدق أن يا سيدي تلك هي نسمات الحرية قد مرت من هنا.. يا سيدي تلك مصر التي عادت إلى أيادي مستحقيها.

- بتُّ متأكدا أن النظام المصري المخلوع وقياداته لا يملكون أي نوع من الحس الابتكاري أو الإبداع.. إنها التجربة التونسية نفسها بحذافيرها.. كثيرًا ما كنت أفكر من وجهة نظر الرئيس المخلوع.. وكيف أنه سوف يثبت للعالم أن مصر ليست تونس وأنه ليس "زين العابدين".. حتى إن كان قد قرر التنحي في يوم ما فسوف يجعلهم مثلا أربعة خطابات بدلا من ثلاثة.. أو أن يختار يوم الثلاثاء على سبيل المثال بدلا من الجمعة.. أو حتى أن يأمر رجال "الضفادع البشرية" لينشروا الفوضى في الشوارع بدلا من مجموعة من البلطجية المسلحين بالعصا والسيوف كما فعل سابقه.

إن نظاما بلا خيال لا يستحق أن يبقى في سدة الحكم لحظة واحدة.

- "ما انت قاعد بره مصر.. مش حاسس بحاجة".

كان هذا هو الرد الجاهز الذي كنت أتوقعه عند كتابتي لأي رأى معادٍ للنظام ومضاد لدعاة التهدئة ودرء الفتنة.

ولكم كان هذا يقتلني.. أن أرى ثورة من أشرف ما صنعته أيادي

التاريخ تكاد تجهَض على أيدي حفنة ممن ليس لهم في "الطور ولا في الطحين".. الذين يرضون بفتات يلقى لهم من أعالي قصور حاكميهم المنيفة.. ونحن جالسون في بيوتنا لا نقوى على البعث برأينا المتواضع إلى من يهمه الأمر.

لكنني الآن أكتب.. أكتب وقد شاءت الأقدار أن أحضر سويعات من العصر البائد أهتف وأطلب وأطالب.. وسويعات تساويها تقريبا – إلى الآن – من عصر الحرية.. أحتفل وأرقص وأهلل وأتمنى أن يأتي عليَّ – وعلى كل شاب مصري – يوم يسافر فيه خارج محبوبته فقط ليجرب ويعرف ويتعلم.. وليس لأن بلاده لفظته خارجها لأنها لم تستطِع توفير العيش الكريم له ولمن هم مثله..

لا تقسوا على من قسم لهم الله أن يعيشوا خارج أوطانهم.. فيكفيهم ما هم فيه.

– الثورة ليست واجبا مدرسيا أو عملا محددا بزمن يتم إنجازه ثم نستطيع بكل تلقائية العودة لديارنا راضين مقتنعين بكفاية ما أنجزناه..

إنها فقط بداية صحيحة للطريق.. فدعونا لا نقع فيما وقع فيه آباؤنا وأجيال من سبقونا عندما شعروا بانتهاء مهمتهم بعد انتصار أكتوبر المجيد.. وظنوا أن هذا جل ما قد يصنع أحدهم وانتظروا أن يجمع

سواهم بيض السلة ليفرقه عليهم.. حتى إنهم لاحقا لم يجدوا السلة بما فيها.. واستأثر بها قلة سادت وتحكمت وعاثت في الأرض فسادًا..

إن الدور الحقيقي يبدأ من الآن.. هذه ثورتنا وهذه بلادنا.. فدعونا نبنِ بلادنا باستكمال ثورتنا.

- "يا لفُجركم" - بضم الفاء - لكم أشعرنا هؤلاء أننا صرنا صغارًا لا وزن لنا ولا قيمة.. هكذا كان لسان حالي عندما رأيت اقتصادات عالمية تتهاوى وبورصات تسقط وتحترق متأثرة بالثورة المصرية.. عندما رأيت دولاً تفرح.. ودولاً تبلل سراويلها من فرط الخوف على أمنها أن قامت لبلادي "قومة"..

عندما رأيت أناسًا يحتفلون من المحيط إلى الخليج بأم الدنيا التي إن قامت واستفاقت حل وراءها أخواتها من أنحاء القطر العربي قاطبة.. حينها.. وحينها فقط.. استيقظ لديَّ هذا الشعور الذي لم يستفِق من قبل إلا على استحياء.. فخرٌ ليس له مثيل.. فخرٌ قام من سبات عميق مسبب تكالبت على طمس معالمه عقود وعقود من مؤامرات القمع ورءوس الفساد وحماة المصالح الشخصية ومريدي زواج المال والسلطة..

فخرٌ دفنت معالمه تحت أنقاض أشباه بيوت سقطت عليها أحجار الدويقة.. وغرقت بقاياه مع عبَّارة السلام ومات من جرَّاء جرعة من دم

ملوث أو غذاء مسرطن..

فخرٌ أخرج قسرا من مناهج التعليم كما أخرج من قبله العلم والتاريخ المشرف وحل مكانها كذب وزيف وترهات لا تسمن ولا تغني من جوع..

فخرٌ دمرته الواسطة وجرح عزته ضابط في زنزانة بقسم تلوثت جدرانه بدماء شعب مقهور..

فخرٌ عاد إليَّ طائرا محمولا على أجنحة ملائكة قادمة من جنة الخلد.. حيث يحيا شهداء ثورتنا المباركة عند ربهم يرزقون.. يحصدون ثمار ما قدموا لأنفسهم وأهليهم وبلادهم من عزة وكرامة وفخر..

ولهم أقول: يا من اصطفاكم الله لمجاورته واختاركم لتعيدوا لنا مجدا بعُد عن ناظرينا طيلة عقود وعقود من الزمان.. لكم أن تستريحوا في قبوركم.. فأنا ومن مثلي نهتف الآن بأعلى ما نملك من صوت في حناجرنا دون خوف أو خزي:

أنا مصري.. أنا مصري.. أنا مصري.

نار إبراهيم*

لم يهمني أن كان على فراش المرض حقًا أم أنه يتمارض.. لم يهمني إن كانت محاكمة حقًا أم مسرحية هزلية.. لم يهمني إن كان هو حقًا أم شبيهه.. لم يهمني خوف البعض من محاميه "العُقر" وقلق البعض من رئيس المحكمة واستهانة البعض بفريق المدعين.. لم تهمني كلماته المصرة واستكانته الموجسة وطمأنينة ابنيه المقلقة..

ما أهمني فقط هو شعور (إبراهيم)..

فقط (إبراهيم) هو من تذكرته في هذه اللحظات.. لم يكن كجميعهم.. لم يوجد في ملامحه ما يميزها على غير عادة سائقي التاكسي.. مواطن مصري تراكمت على وجهه أمارات حزن ثلاثين عاما.. حتى إن كنا بعد يوم التنحي بثلاثة أيام فقط..

حينما كانت الوجوه تكسوها فرحة عارمة وابتسامة مفعمة بالأمل

* كُتب هذا المقال في أول يوم ظهور لمبارك داخل قفص المحاكمة

على غير العادة.. كان إبراهيم صامتا..

كان يريد أن يفرح بشدة.. هكذا فضحته عيناه.. كانت "كلاكساته" كلما صادفنا جمعا من المحتفلين دليلا على سعادة لا تلبث أن تصطدم بحائط صلب حُفرت على سطحه معاناةٌ ما..

نظرت إليه مليًّا.. مددت رأسي إلى الأمام قليلا علّه يشعر بنظراتي الفاحصة.. لطالما أقنعتني أمي أن أحدنا يشعر بنظرات من يراقبه حتى إن كان وراء ظهره.. لكن (إبراهيم) لم يبدُ أنه يشعر بي أصلا..

"انت مش فرحان يا اسطى ولا إيه؟"..

التفت (إبراهيم) لي فجأة فأجفلت.. الآن فقط أرى بريق عينيه.. ثمة دمعة تحارب سجانها لتخرج إلى النور.. شفتان شققتهما آلام الحياة تشرق على ضفافهما ابتسامة مريرة سوداء..

"أفرح؟ ولماذا أفرح؟".. قال (إبراهيم)..

لم أشعر أنه من ذلك النوع المغيب الذي لم يعرف أصلا أن هناك من قام بثورة منذ أيام وأن "فرعون" قد اقتلع من على عرشه اقتلاعا في سابقة لم يعرفها التاريخ..

لم أرد.. فقط شرعت أنظر إليه منتظرًا ذلك التفسير الذي يعقب

تنهيدته..

"وإن خلعوه".. قال (إبراهيم): "أتظن أنه سيرد لنا ما سلبه منا؟ وإن رده مالاً.. كيف له أن يرده عمرا؟ أتدري يا أستاذ كم لي من العمر؟ أنا نفسي لا أعلم ولا أريد أن أعلم.. فلن يزيدني إلا هما على هم"..

يعود لينظر أمامه وعيناه تسرحان في زمن آخر.. ويقول:

"أنت يا بني لم ترَ ما رأيتُ"..

– أنت يا بني لا تعرف معنى أن تقضي ست سنوات في غرفة مظلمة لها فتحة لا تتسع لقدم يلقى إليك عبرها طعام غمره الدود وتتبعه ضحكات ماجنة تتلذذ بما تقاسيه أنت من مهانة.. لا تعرف معنى أن تفقد إحساسك بآدميتك لدرجة أن تتناسى الطعام والضحكات وتعد الدقائق حتى تفتح تلك الفجوة الضيقة لترى شعاعا خافتا من النور فقط لتتأكد أنك ما زلت حيًّا..

– ست سنوات يا بني لم تكن مصيبتها في طول المدة.. لكن المصيبة أنك لا تعرف متى ستخرج ولا كيف ستخرج.. أعاقلا أم مغيبا؟ أسائرا أم محمولا؟ أرجلا أم نصف رجل؟

– أنت لا تعرف يا بني معنى أن تخرج من السجن لتبدأ رحلة

البحث عن عمل يكفل لك ولأولادك أي حياة.. كريمة أو غير كريمة.. فلا تجدها.. ثلاثة أشهر تدمى فيها قدماك وقلبك.. لتجد أنك في النهاية تجازى على ذنب لم تقترفه وإثم لم تقربه يداك.. ثم تدخل على ابنك ذات ليلة لتجده ينظر إليك باستجداء: "أنا جعان يا بابا" لتقول له ولهب نيران بطنه يقتلك: "معلش يا ابني.. ادخل نام وإن شاء الله بكره هنفطر"..

- يبدو عليك يا أستاذ أنك "ابن ناس".. لم تصادف يومًا ذلك الضابط الذي يستوقفك فجأة ليصفعك على وجهك بلا سابق إنذار ويغرق هو وزملاؤه في نوبة ضحك.. ليس لشيء إلا أن يهينك على مرأى من زوجتك وأبنائك..

- لي من العمر يا بني أعوام كثيرة.. ويقابل كلُّ عام فيها مرضًا ما.. سلك طريقه في عروقي إلى غير رجعة أو مغادرة..

إن خلعت لك ملابسي يا بني تكشفت لك جروح متفرقة تأبى آثارها أن تمحى وكأنها أم ثكلى لا ترضى بأقل من أن تأخذ بثأرها ممن آذوها..

- هذه هي - باختصار شديد - حياتي يا بني.. فلا تنتظر مني فرحة بخلع فرعون من على كرسيه.. ولا تنتظر مني فرحة إن قُتل أو

مات.. فلا هذا ولا ذاك سيعيد لي ما قد فات..

"إنني فقط يا بني لا أستطيع أن أمنع عقلي من تمني أن يراه.. مذلولا"..

(ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله)..

خواطر "فيس بوكية"

(منذ بداية ظهور المواقع الاجتماعية كـ"فيس بوك" و"تويتر" كنت أظنهما شيئا واحدا غير منفصل على طريقة "همَّ الأقصر وأسوان مش محافظة واحدة؟".. اعتبرهما الكثيرون منفذا لخروج الأفكار خارج حدود العقل وإلى الآخرين دون الوقوع في دائرة إحراج التلاقي. وما بين يديك الآن هو بعض الخواطر التي عصفت بذهني ساعة لتجد طريقها إلى لوحة المفاتيح ثم إلى عوالم الـ"فيس بوك".. بعضها سياسي وبعضها ديني وبعضها شخصي لا يمت لك بصلة وبعضها غير شخصي ولا يمت لك بصلة أيضًا.. هي ببساطة مجموعة من الجمل العادية يظن صاحبها أنه "جاب الديب من ديله".. فنصيحتي لك أيها القارئ العزيز ألا تضيع وقتك في قراءتها.. فهي في الأول والآخر كلمات يمكن تجاهلها)..

- وما زالت الشمس تشرق على الرغم من أنف المنغصات.. الحمد لله على نعمة الصباح.

- هكذا كنا نعشق الصباح.. ننتظره بفارغ الصبر لتغازل أصابعنا

شعاع النور فتغزل أشكالا على حائط الغرفة.. وهكـذا صـرنا نملـة.. كلمـا طرقت أصابعنا مفاتيح (الكيبورد)..

– يقتلني يقيني بأن هنـاك مـن يعـرف الحقيقـة بأكملـها.. يقبـع خلف الأبواب المغلقة.. يهمس لنفـسه في رضـا.. ويهمـس لنـا في سـخرية قاصدا ألا نسمعها..

يا هذا.. كيف تحيا؟ كيف تغفو؟ كيف يطيب لـك الطعـام؟ كيـف تأمن على ما تملك وما لا تملك؟

– تتعاقب الأخبار.. محدقا في شاشتك تتابع مصادرك الإعلاميـة.. استشهد فلان.. قُتل علان.. تتفاعل.. تغضب ثم تهدأ.. تهلـل ثـم تلعـن.. كم صرنا عبادا لتلك الآلة الإعلامية.. تتساءل.. ماذا لو غُرر بك؟ مـاذا لـو كانت الأخبار مغلوطة؟ فجأة.. تستشعر العجز..

– لطالما آمنت بأن وجه الله متبسم حانٍ بعيد كل البعد عـن مقطـبي جبين يأمرون بالمعروف بغير معروف.. وينهون عـن المنكـر بمنكـر أسـوأ منه..

– ديني باسِمٌ لا يقطب جبينه.. ديني عاقل لا يكفِّر من ظننت أنـه يعارضه.. ديني مستقيم لا يغير جلـده ولا يكيـل بمكيـالين.. ديـني صـنع ربي.. وعقلي وقلبي صنع ربـي.. وبـين ديـني وعقلـي لا تعـارض.. وبـين

قلبي وربي لا حجاب.. ولا راهب ولا اعتراف.. ولا شيخ بلا كتاب.. رُفعت الأقلام وجفت الصحف.

- وهكذا يتجسد في قلبك معنى عظمة الخالق.. عندما تشهد بداية الكينونة.. من العدم إلى الوجود.. من الغيبية إلى الظهور عيانًا.. تباركت يا من أنشأته خلقا آخر.. تباركت يا أحسن الخالقين.

- قرعت أياديه على أبوابنا.. أبغتة كانت طرقاته أم صار لها زمان؟ أصمت آذاننا أم أن حب الوطن أعمانا؟ وإن فعل.. أخيرًا نجزى إن أصغت قلوبنا للأرض برهة وبعدت عنا السماء؟ (رمضان)..

- فقط أبطال الروايات هم من باستطاعتهم إعادة عجلة الزمن لمراجعة ردود فعلهم..

- لم أتوقف يومًا عن تخيل مقدمة السيارات كوجوه بشرية.. ولكن ما لتلك الوجوه تزداد قسوة يومًا بعد يوم..

- صعد رويدًا رويدا.. من باطن الأرض نقبا إلى ظهور.. لم نستشعره.. وإن فعلنا لا نكترث.. صار ظلالا على أقدامنا.. لم نكترث.. وفجأة.. لم نعد نرى النور..

- كثيرًا ما لم نجد تفسيرًا لذلك القلق الذي يتبع توالي الأخبار

السعيدة.. تلك التنهيدة.. و"اللهم اجعله خير" التي تعقب نوبة الضحك.. ذلك الانتظار لنهاية غير سعيدة سطرناها في غياهب عقولنا..

هل اعتدنا على الحزن أم صرنا نتصنع الإيمان؟

- في أعلى الرفوف أضعك.. بعيدًا عن ناظري.. تبغين العزلة.. وأتمناها.. أهيل عليك أتربة الحياة.. أعبث بما تقع عليه عيناي.. هنا وهناك.. ليس إلا أنت..

- لحظات تشعر فيها أن كل من يُكن لك حبًّا هو إما أحمق.. وإما مدعٍ.. فمثلك لا يستحق هذا الحب..

- أشد أوقات الحيرة هي تلك التي يجب أن تختار فيها بين التعامل مع الواقع والتطلع إلى المثالية..

- كثيرًا ما تمنى جزء بداخلي هذه الحياة: خمر.. مخدرات.. نسوان.. ليس لمتعة خاصة في هذه الأشياء ولكن لمتعة الخلاص منها يومًا ما..

- في بلادنا صنفان إلا من رحم ربي: صنف أطال اللحى وشرع في تكفير من يشاء ليصفوه بالعالم الجليل.. وصنف قرر أن يخوض ثنائية الجنس والإلحاد ليصفوه بالمثقف العبقري..

– هو أكثر من يحب بلاده في العالم.. لكنه الوحيد الذي لا يمنعه حب بلاده من إيذائها.. عن تعود أو عمد أو غير عمد.

لوغاريتمات عقلية مصرية.

– عندما يطالب أمناء الشرطة بتطهير الداخلية.. فهل هذا يعني تطهيرها من الفاسدين أم من غير الفاسدين؟

– مصطفى أحمد حسن عمرة.. أحدث شهداء الثورة.. رصاصة في المخ.. فقط بضعة سنتيمترات من المعدن وسبابة لتنهي حياة..

أب وأم.. عائلة وأقارب وأصدقاء.. ضحكات ودموع.. عمل وبيت.. ذكريات وحاضر ومستقبل.. أنا وأنت بكل ما تحمله حياتنا من تفاصيل..

الله يرحمك..

– لا تلُم عليهم أن تطلَّعوا لبطولة لم يجدوها إلا في تسلق سفارة وإنزال علم.. بطولة طمست معالمها سنوات من القمع والتحقير والإذلال.. التمس لهم أعذارا يستحقونها إن لم يجانبهم الصواب.. لا تقل: عشوائيون غوغاء.. فهم شعبك شئت أم أبيت وثورتك لم تكن للنخبة المثقفة المتعقلة ولكنها منهم ولهم..

– السيارة البيتلز موديل ٧٠ تزأر بقوة معلنة أن زمانها وإن ولى

فإنه لم ينتهِ بعدُ.. الفكهاني الذي أحكم سيطرته على نصف عرض الشارع دون أن يصمت صوت القرآن عبر أثيره لحظة واحدة ولا يتوقف عن تقليب كفيه مؤكدا أن الدنيا "معادش فيها خير".. صور شهداء الثورة تقف شامخة على واجهات المباني وكأنها حية لا تبلى مع الزمن كأرواح أصحابها.. أمي تنهرني لوجودي في البلكونة والبرد لسه هاريني..

مشاهدات لحظية من بلكونة بيتنا.

- لكي تريح دماغك تمامًا من المطالب المتزايدة.. دائمًا العب على وتر الدين.. فأنت تحكم بلادا يصلي فيها السارق "ركعتي نية" قبل بدء سرقته.

- علمتنا الثورة أن يكون حبنا لأجيال سبقتنا هو حب احترام وعاطفة فقط.. وليس حب اتباع ومثل عُليا.. مع وجود بعض الاستثناءات التي تثبت القاعدة.

- علمتنا الثورة أنه لا أحلام خارج نطاق قدرتنا.. أن نسمو فوق أيديولوجيات صورية.. علمتنا سهولة تلاقيَ المتوازيين.. فقط إن أرادا أن يلتقيا.

- نسمات عليلة في شوارع الإسكندرية.. روح ثورية تعبق جنبات المكان.. أعلام تتطاير.. هتافات تعلو.. بنت رقيقة ترتدي فستانا وحجابا

من ألوان علم مصر.. تبتسم في خـيلاء.. ترفـع تليفونهـا إلى أذنهـا.. يبـدأ فمها في إخراج كلمات على غرار "انتشي ركبتشي المشروع ولا لسه؟ اوعـي تديله أكتشر من ربع جِني).. تقفلك من الثورة والتحرير والبلـد والإعـلام والـشعب والجـيش وإيـدهم الواحـدة.. (ت) و(ش)... أم الحـرفين دول.. خنقوووووني.

الفهرس





محمد النجار



مصر
التي في..
التليفزيون

شرع يحكي لها عن ملح الأرض.. عن تجاعيد الزمن تحت عيون العجائز.. عن دفء شعاع الضوء خلف الستائر في ليل قارص.. عن همهمات المارين على أكشاك الشطائر ليلاً.. عن قرعات طبول الرزق على رؤوس والد العروس.. و كانت تبتسم.. يعرف أنها لا تفهم حرفًا.. و لكنها على الأقل تدرك أن لا دخل لبهانة في الموضوع..

